الكتاب الثالث

obeikandl.com

أعمال بلدوين الثاني

ترسيم الملك بلدوين في عيد الفصح :

إثر وفاة الملك بلدوين ، وحتى لا يظن بهم ضعف لافتقارهم إلى ملك ، عقد أهل القدس مؤتمرا ، اختاروا فيه ملكا عليهم هو بلدوين كونت الرها ، وهو قريب للملك الراحل ، وتصادف ذلك مع عبوره لنهر الفرات وحضوره إلى القدس بهدف التشاور مع سلفه الملك الراحل ، وجرى اختيار بلدوين بالاجماع ثم تم ترسيمه يوم عيد الفصح .

حشد جيش مصر :

مع حلول الصيف من السنة نفسها حشد المصريون جموعا كثيرة في جيش قدر تعداده بخمسة عشر ألف فارس وعشرين ألف راجل ، وكان الهدف تدمير مسيحيي القدس في الحرب ، ولدى وصول هذه الحشود إلى عسقلان ، قصدهم طغتكين صاحب دمشق مع رجاله ليقدم لهم العون وذلك بعد عبوره لنهر الأردن ، فضلا عن هذا أبحر أسطول معتبر لا يستهان بطاقاته نحو عسقلان ، غير أن هذا الأسطول الذي تألف من سفن حربية وسفن مؤونة ما لبث أن أبحر نحو صور ، ومع هذا فإن الجيش الذي جاء برا بقي في عسقلان توقعا للحرب .

وبالمقابل سارع الملك بلدوين بالاستعداد للقتال ضد جيش العدو ، وكان قد استدعى إليه رجال أنطاكية وطرابلس لمشاركته ، وزحف

الملك نحو العدو ، ولدى مروره على مقربة من أسدود ، مدينة الفلسطينيين القديمة ، أمر بانزال الأثقال من على ظهور الدواب ، وضرب معسكره ليس بعيدا عن المصريين حتى يتمكن الجيشان من مراقبة بعضهما بعضا كل يوم .

وبما أن كل فريق منهما خاف كثيرا من محاربة الطرف المعادي ، ولأنهم آثروا الحياة على الممات ، فقد وفق الجانبان إلى تأجيل القتال قرابة ثلاثة أشهر لمثل هذه المسوغات ، ثم أقلع المسلمون عن القتال بعدما فقدوا صبرهم من طول الانتظار ، وعاد رجال أنطاكية إلى ديارهم غير أنهم خلفوا كتيبة مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل مع بلدوين لتعزز قوات الملك وقت الحاجة ، وذلك في حالة معاودة المصريين التفكير باستئناف القتال .

الأتراك يحاربون أهل أنطاكية ويذبحونهم :

في عام ١١١٩ لتجسيد الرب مات البابا غالسيوس ، خليفة باسكال ، وكان ذلك في اليوم الرابع قبل مطلع شهر شباط ، وورري جسده في كلوني ، وجري اختيار كالكستوس خلفا له ، وكان قبل ذلك أسقفا لمدينة فيين .

ليس بودنا الاثقال على قارىء هذا التاريخ باحصاء جميع الحوادث المشؤومة التي حدثت في تلك السنة خاصة في منطقة أنطاكية ، عندما خرج روجر ، أمير تلك المدينة مع قادته ورجاله ليحارب الأتراك ، فقتل في أحواز بلدة ارتاح ، وقتل معه سبعة آلاف من رجال أنطاكية ، ولم يقتل من الأتراك سوى عشرين رجلا .

ينبغي الا يدهش أحد كيف أذن الرب بهزيمة روجر ورجاله . ذلك أنهم أغرقوا أنفسهم في الملذات ، وتمتعوا بالثروات من كل

صنف ـ ولم يظهروا في آثامهم أي اعتبار لاحترام الرب والانسان .

فهو نفسه اقترف الفحشاء بدون حياء مع كثيرات ، مع أنه كان مايزال يعيش مع زوجته ، ثم إنه كان قد حرم ابن بوهيموند ، وهو سيده ومولاه ، من ميراثه ، وكان ابن بوهيموند هذا يعيش آنذاك مع أمه في أبوليا ، لقد أثم روجر مع قادته ورجاله ، فقد عاشوا في بذخ ورفاه عظيم ، واقترفوا كثيرا من الآثام ، فانطبق عليهم ما قال داود : « جحظت عيونهم من الشحم ، جاوزوا تصورات القلب » (المزامير : ٧/٧٣) وقلما ساد الاعتدال في خضم المتع الوافرة .

الملك بلدوين يسرع إلى مد العون إلى أهل أنطاكية وهو يحمل صليب الصلبوت :

نال أهل القدس بفضل الرب نصرا مبينا بإعجوبة بعد المذبحة التي لحقت أهل أنطاكية ، ذلك أنه كان روجر المذكور عندما عرف بزحف الترك ضده أخبر ملك القدس بذلك بوساطة مراسليه ، وطلب منه الاسراع لنجدته ، لأن الأتراك كانوا يزحفون ضده بجيش جرار ، وأوقف الملك جميع أشغاله ، وكان قد خرج آنذاك للقتال ضد أهل دمشق على مقربة من نهر الأردن ، وقد اصطحب معه البطريرك وحمل صليب الصلبوت ، وبعدما طارد الأعداء بكل نشاط ونفاهم عن الحقول في مناطقه ، بادر مسرعا بدون تلكؤ لمد يد العون إلى أهل أنطاكية ، وأخذ معه أيضا أسقف قيسارية ، وهو الذي حمل فيما بعد على الأعداء بكل شجاعة وهو يرفع صليب الصلبوت ، يضاف إلى هؤلاء أحضر الملك معه كونت طرابلس ، وبذلك اجتمع معهما مائتان وخمسون فارسا .

ولدى وصول الملك إلى أنطاكية بعث بوفد إلى أهل الرها يأمرهم

بشكل ملزم بالاسراع بالزحف للانضمام إلى الحملة المزمع شنها ضد الأتراك . وبعدما التحق بالملك جنود أنطاكية الذين كانوا قد فروا من المعركة السالفة الذكر ، أو بالحري نجوا من براثن الموت ، وقع القتال واحتدمت المعركة في أحواز بلدة اسمها زردنا ، وهي على مسافة أربعة وعشرين ميلا من أنطاكية ، وكان وقتها عدد فرساننا سبعمائة ، وعدد الترك عشرين ألفا ، واسم قائدهم غازي (ايلغازي) ويخيل لي أن علي عدم اغفال ذكر ما قاله واحد من الأتراك عندما لاحظ أن واحدا من فرساننا ينطق باللغة الفارسية ، فقد توجه إليه بالخطاب قائلا: « اسمع أيها الافرنجي ، أأحمق أنت لتجهد نفسك عبثا ، لن يكون لكم فوز علينا أبدا ، لأنكم قلة ونحن كثرة ، والحق أقوله لك إن ربكم قد تخلى عنكم لعلمه أنكم لا تطبقون نواميسه حسبما أوجبه عليكم ، ولا تحفظون الأيمان والصدق فيما بينكم ، وعليه من المؤكد أننا سنغلبكم في الغد ونهزمكم » ، وأسفاه ما أعظم خزي المسيحيين وأشد عارهم إذ يعيرنا من لا دين له في ديننا ، ومن أجل هذا يتوجب علينا أن نغرق في الخجل ، وأن نبكي بحسرة ونتوب ، ونزيل آثامنا .

القتال والنصر الذي حزناه بفضل صليب الصلبوت واستقبال الصليب في أنطاكية :

ونشب قتال عنيف في اليوم التالي ، ولم يحسم لصالح أي طرف من الطرفين ، وطال العراك حتى أرغم الرب القدير الأتراك على الفرار ، بعدما شحن المسيحيين بالحماس وزودهم ضدهم ، وذلك على الرغم من أن الأتراك كانوا عندما هاجموا المسيحيين في البداية قد مزقوا صفوفهم وبعثروهم إلى زمر صغيرة طاردوها حتى أبواب أنطاكية ، ومع أن المسيحيين لم يتمكنوا من لم شتاتهم والاحتشاد ثانية ، فقد شتت الرب الأتراك وهزمهم ، فالتجأ بعضهم إلى داخل

مدينة حلب طلبا للأمان ، وتابع آخرون فرارهم إلى ديارهم في بلاد الفرس .

فضلا عن هذا كله ، أظهر ملك القدس وكونت طرابلس ومعهما رجالهما أنهم أتباع مخلصون لصليب الصلبوت العالي المجد ، فقد حملوه معهم إلى المعركة كعبيد للرب ، ودافعوا عنه بشجاعة وثبات ولم يتخلوا عنه ، لقد صمدوا بكل رجولة ، ودافعوا عن مواقعهم في ساحة الوغى ، وبقدرة هذا الصليب الغالي والعظيم القدسية ، اختطف الرب عبيده ، من قبضة الجنس التركي المقيت ، وصان شعبه وادخره لمهمة مقبلة في خدمته .

وبعدما رابط الملك في أرض المعركة لمدة يومين ، وعندما لم يجد أن أحدا من الأتراك قد عاد إلى القتال ، حمل صليب الرب ، وتوجه يريد أنطاكية .

فخرج بطريرك أنطاكية ليتلقى الصليب العظيم القدسية والملك ورجال الاكليروس الذين حملوه ، وقدم الجميع الشكر للرب ، وسكبوا عذب الثناء على الرب الكلي القدرة الذي منح النصر للمسيحيين ، بقوة الصليب العظيم القدسية ، وأعاد الصليب إلى بلاد المسيحيين سليما ، لم يمسسه أحد بأذى ، فبكى الجميع خشوعا ، وأنشدوا فرحا ، وجثوا مرارا متعبدين أمام الصليب الجدير بالاحترام والتبجيل ، ثم نهضوا مجددا رافعين وجوههم لتقديم الشكر .

شعر :

ظهرت الشمس مرتين في برج العذراء
عندما التهبت هذه المعركة التي هزم فيها الفرثيون
وفي تلك الأونة كان الهلال قد أضاء عشر ليال .

استقبال صليب الصلبوت في القدس :

بعدما استجم الفرنجة في أنطاكية لفترة وجيزة ، قـرروا العـودة إلى القدس ومعهم صليب الرب المبارك ، وحسب الأصول بعث الملك بالصليب إلى القدس بعدما كلف بهـذه المهمـة العـدد اللازم مـن الجنود ، وقد دخل هؤلاء بـه إلى المدينة المقـدسة مسرورين ، وكان ذلك في اليوم الذي احتفلوا فيه بعيد تقديسه ، مثلما فعل الامبراطور هرقل من قبل ، عندما استرده من بلاد الفرس ، ولقد استقبل أهـل القدس جميعا الصليب بكل غبطة وسرور يفوق الوصف .

الملك يحصل على إمارة أنطاكية :

واقتضت الضرورة وقتها أن يبقى الملك في أنطـاكية بهـدف منح أراضي الذين توفوا من النبلاء إلى الأحياء وفقا لأصول النامـوس ، ولكي يجمع بين الأرامل ـ فقد وجد منهـم الكثيرات ـ وبين أزواج يكنون لهن المودة ويقدمن لهم الطاعة ، وبغية اعادة تنظيم الكثير من الشؤون واعادة وضع الأمور في نصابها ، ذلك أن بلدوين كان حتـى ذلك الحين ملكا للقدس فقط ، لكن وفاة روجر أمير أنطـاكية جعلت منه ملكا لأهل أنطاكية أيضا ، وسيدا لهذه المملكة الثانية .

لهذا إنني أحث الملك ، وأتوسل إليه ، أن يحب الرب بكل جوارحه وعقله وقوته ، وأن يكرس نفسه كلية عبدا مـطيعا للرب ، ويحمـده على ما أعطاه ، وأن يعتـرف ـ وقـد وجـد في الرب صـديقا حميما ـ أنه عبد الرب بلدوين مثلما رفعـه هـو' لقـد جعـل الرب الآخرين ملوكا لمملكة واحدة ، في حين ملك الوضيع ، فمن الذي رفعه الرب من أسلاف بلدوين مملكتين ، وقد استحوذ عليهما بدون خداع أو سفك دماء وبدون معاناة التقاضي ، بل بسلام وبارادة الرب .

لقد أعطاه الرب البلاد الشاسعة الممتدة من مصر إلى بلاد الجزيرة ، ومد الرب يده نحوه بسخاء ، فعليه أن يحذر وألا يمد يدا حاقدة نحو الرب الذي يعطي كثيرا ، ولا يهتم بسفاسف الأمور ، وإذا أراد بلدوين أن يكون ملكا ، فعليه أن يبذل جهده في سبيل الحكم بالعدل .

وعاد الملك من أنطاكية إلى القدس ، وذلك بعد قيامه بعدد من الانجازات ، وقد تم تتويجه مع زوجته بالتاج الملكي يوم عيد الميلاد في مدينة بيت لحم .

اعفاءات من الضرائب :

في عام ١١٢٠. لتجسيد الرب ، أعفى الملك بلدوين الثاني من جميع الضرائب كل من رغب في احضار الحنطة والشعير والبقول إلى مدينة القدس ، وأصبح للسراسنة كما للمسيحيين الحرية في الدخول إليها والخروج منها وشراء ما أرادوه ممن أرادوا ، ثم إنه ألغى الضريبة المعتادة على الموازين والمكاييل .

الأتراك يحتشدون والملك يحمل عليهم :

بعدما أمضينا ستة أشهر من تلك السنة في القدس ، وصلت رسل أنطاكية تعلن للملك ولجميع الحضور منا ، أن الأتراك قد عبروا نهر الفرات ، ودخلوا إلى أراضي سورية مثلما فعلوا من قبل .

وعقد الملك بعض المداولات حسبما أملته الضرورة ، ثم توسل إلى البطريرك بكل تواضع وإلى رجال الاكليروس أيضا أن يعهد إليه بحمل صليب الرب الظافر ، وقال : إنه ينبغي أن يتقوى به مع

رجاله أثناء التحضير للمعركة ، فهو قد اعتقد أنه لن يكون بالامكان طرد الأتراك وابعادهم عن البلاد التي بدأوا بالفعل بتدميرها ، بدون معركة ضارية ، وبما أنه لم يثق بقوته ولا بكثرة الرجال الذين هم في صحبته ، فقد آثر أن يستحوذ على ذلك الصليب ومعه عون الرب ورعايته ، وفضله على عدة آلاف من الرجال .

ولهذا السبب نشب خلاف حاد بالرأي بين الذاهبين إلى المعركة وبين الذين سيبقون في القدس ، حول وجود الصليب في هذه الأزمة التي واجهتها المسيحية ، وفيما إذا كان من الأفضل حمل الصليب إلى أنطاكية ، وحرمان كنيسة القدس من هذا الأثر الثمين وقلنا واأسفاه ماذل نفعل لو سمح الرب أن نفقد الصليب أثناء القتال مثلما فقد الاسرائيليون مرة تابوت الرب ، (صموئيل الأول : ١٠/٤ ــ ١١) .

ولماذا نكتب المزيد ، لقد أرغمتنا الضرورة ، وعلمنا العقل ، ففعلنا ما لم نرغب وقررنا أن نفعل ما لم نبتغ ، وبعدما نرفت الدموع الغزيرة عبادة للصليب ، وأنشدت التراتيل تمجيدا له ، والملك والبطريرك والناس جميعا وقوفا حفاة الأقدام ، رافقوه إلى خارج المدينة ، وغادر الملك به وهو ينرف الدموع ، وعاد الناس إلى المدينة المقدسة خسارى ، ووقع هذا في شهر حزيران .

وقصد الملك انطاكية ، التي كان الأتراك يتحرشون بها آنذاك ، عن قرب الى حد أن سكانها كانوا لايتجرأون على الابتعاد عنها مسافة أكثر من ميل ، وعندما سمع الأتراك باقتراب الملك ، تخلوا عن المنطقة فورا وغادروها الى مدينة حلب ، حيث اعتقدوا أنها أسلم لهم ، وهناك انضم اليهم ثلاثة آلاف جندي من أهل دمشق.

غير أنه بعدما زحف الملك ضدهم بكل جسارة واقترب منهم لكي يشتبك بهم ويشب القتال معهم ، وبعدما قتل وجرح العديد من

الطرفين بالنشاب ، رفض الأتراك اعطاء المعركة والدخول باشتباك عام ، وهكذا عاد رجالنا أدراجهم بعد ثلاثة أيام من المناوشات غير الحاسمة ، عادوا إلى أنطاكية ، كما وعاد معظم الأتراك إلى بلادهم في فارس .

وبعد أمد أعاد الملك الصليب المقدس إلى القدس باجلال موائم ، لأنه بقي هو هناك في أنطاكية لكي يحمي البلاد ، ولقد استقبلنا صليب الرب العالي المجد بكل سرور وغبطة ، وكانت عودته إلى القدس في اليوم الثالث عشر قبل مطلع شهر تشرين الثاني .

الملك يحمل على أهل دمشق ويدمر قلعتهم :

في سنة ١١٢١ لتجسيد الرب ، في اليوم الثالث قبل السابع من تموز حشد الملك رجاله من البلاد مما بين صيدا ويافا ، وعبر نهر الأردن ، ثم زحف ضد ملك دمشق الذي كان يحدث الدمار ـ مع حلفائه العرب ـ في بلادنا المجاورة لطبرية دون أن يلقى مقاومة أحد ، وعندما عرف صاحب دمشق أن ملكنا كان يقترب منه ومعه جيشه ، قوض على الفور خيامه ، وتجنب القتال وانسحب ملتجئا الى دياره .

وبعدما طارد ملكنا العدو لمدة يومين اثنين ، دون أن يجبر العدو على القتال ، تراجع ملكنا وتحول نحو قلعة حصينة كان طغتكين صاحب دمشق قد أمر ببنائها في السنة المنصرمة وذلك بقصد ايذائنا ، وقد قدرنا أنها تبعد ستة عشر ميلا عن نهر الأردن ، والقى الملك الحصار عليها ، وهاجمها بالآلات واستولى عليها بالقوة ، وسمح بعد استسلامها لحاميتها المكونة من أربعين تركيا بالمغادرة وفقا لشروط اتفق عليها ، ثم دمرها حتى سواها بالأرض .

وقد دعا سكان تلك المناطق هذه القلعة باسم جرش ، وكانت تقع داخل مدينة شيدت في غابر الزمان ببهاء وروعة ، وفي موقع حصين ، وقد بنيت من حجارة مربعة كبيرة ، وبعد ماقدر الملك مدى المشاق التي واجهها في احتلال ذلك الموقع ، ومدى صعوبة تزويد القلعة بالرجال والمؤن اللازمة امر بتدميرها ، ومن ثم بعودة رجاله الى ديارهم .

وتدعى هذه المدينة غيراسا (جرش) ، وقد شهرت فيما مضى في بلاد العرب ، وهي واقعة على مقربة من جبل جلعاد في بلاد قبيلة ماناسيس .

شعر :

« تصرمت هذه السنة بالسعادة من جميع النواحي
وبأمان وازدهار ووفرة بالثمار من كل صنف » .

حملة الملك على كونت طرابلس ثم على الأتراك

في سنة ١١٢٢ لتجسيد الرب ، تم تعيين أسقف صور واسمه اودو أسقفا لمدينة القدس ، فكان أول شخص من العرق اللاتيني يتولى ذلك المنصب .

ثم توجه الملك الى عكا حيث حشد هناك رجاله من الفرسان والرجالة ، وزحف أولا نحو طرابلس ، على راس جيشه كله حاملا صليب الصلبوت معه ، وقد أراد أن ينتقم للاذى والاهانة اللتين الحقهما به بونز كونت تلك المنطقة ، وذلك برفضه الخضوع اليه مثلما كان برترام والده قد فعل من قبل .

وبعدما أمكن التوفيق بينهما ، ظهر هناك أسقف بعث به أهل انطاكية ، وقد حث هذا الملك على التوجه بسرعة الى انطاكية ليغيثها من الأتراك ، وكان هؤلاء يعيثون دمارا في المنطقة دون ان يوقفهم أي قائد مسيحي .

وتحرك الملك فور سماعه بذلك ، واصطحب ثلاثمائة من فرسانه المنتخبين وأربعمائة من خيرة مشاته الذين جلبهم من مكان اخر ، وعاد بقية رجاله الى القدس أو الى ديارهم ، ووصل الملك الى حيث سمع أن الأتراك قد تجمعوا وألقوا الحصار على قلعة اسمها زردنا ، لكن هؤلاء تخلوا على الحصار وانسحبوا فهم لم يرغبوا في مواجهة الملك ، ولما سمع الملك بذلك قصد مدينة انطاكية ، لكن مالبث الأتراك أن رجعوا مجددا ، واستأنفوا مشروعهم ، ولما سمع الملك بأخبار هذا الحال ، زحف ضدهم بدون تريث ، ولكن هؤلاء القوم لكونهم فرثيين حقيقيين في القتال والعتاد والمناورة ، ولتميزهم بعدم الاقامة الطويلة في اي موقع (فهم يديرون بأسرع مما يمكن تصوره وجوههم مرة واعقابهم مرة اخرى لمن يقابلهم ، فيفرون بغتة متظاهرين باليأس ثم يكرون فجأة ويعيدون الهجوم) لأنهم لم يدربوا انفسهم على القتال وهم منحصرون في مكان محدد ، كانوا يتجنبون المواجهة كليا ويفرون كما لو انهم اصيبوا بالهزيمة .

فلتحل البركة على راية الصليب العظيم القدسية ، ذلك المدد الموجود في كل مكان لجميع الراشدين ، فهو الذي يدعم المؤمنين ويمنحهم حمايته وسلوانه ، فقد أذن بعودة مسيحيينا الى ديارهم دون أن يلحقهم أذى ، وقد قدر تعداد الأعداء بحوالي عشرة الاف جندي ، في حين كان عددنا ألفا ومائتين باستثناء الرجالة .

وبعدما عاد الملك الى طرابلس بصحبة صليب الصلبوت ، طرأ مادى الى عودته مع بعض رجاله الى انطاكية ، لكن الصليب

المقدس حمل الى القدس بغبطة فائقة ، وهكذ أعيد الى مقره باجلال عظيم ، وكان ذلك في اليوم الثاني عشر قبل مطلع شهر تشرين الأول .

شعر :

« كان ذلك الوقت الذي يحمل فيه برج الميزان الساعات المتكافئة .
المتكافئة بالعدد مثلما هي متشابهة بالطول ».

أسر كونت الرها :

وفي تلك الآونة وقع جوسلين كونت الرها بالأسر وكان معه غاليران قريبه ، وقد قتل مالايقل عن مائة من رجال جوسلين ، فقد داهمهم كمين لبلك الذي كان أحد الأمراء.

وانقضت هذه السنة مثل السنة المنصرمة بوفرة بالانتاج من كل الأصناف ، مما جني في الحقل ، وبيع مكيال القمح بدرهم ، والأربعين بقطعة ذهب ، ولم تشن في تلك الآونة بلدان المشرق ولامصر اية حروب .

توطيد السلام بين البابا والامبراطور :

في عام ١١٢٣ لتجسيد الرب ، في الخمس عشرية ، الأولى رجع الوئام بين هنري ملك المانيا والبابا كالكستوس ، فالحمد للرب ، حيث توحد ثانية العرش والكنيسة في المحبة .

استعدادت اهل البندقية للقدوم بسرعة الى القدس :

الهم اهل البندقية في تلك الآونة بالابحار باسطول عظيم الى سورية بغية - بعون الرب - تعزيز القدس والمناطق المجاورة ، وذلك كله لمنفعة المسيحية وتمجيدها ، وكانوا قد غادروا بلادهم في السنة الفائتة ، وامضوا الشتاء في جزيرة كورفو ، مترقبين موسما موائما لعبور البحر .

وكان قوام اسطولهم مائة وعشرين سفينة ، عدا القوارب والزوارق الصغيرة ، وكانت بعض السفن من ذوات المناقير (شواني) وبعضها الآخر مراكب تجارية ، كما وكان بعضها الآخر له ثلاثة صفوف من المجاذيف شيدت وفق هذه الأنماط ، وحملت السفن خشبة كبيرة يمكن للنجارين الافادة منها ببراعة في صنع آلات الحصار ، التي يمكن بوساطتها تسلق الأسوار المرتفعة للمدن والاستيلاء عليها .

موعد ابحارهم :

وماان حل الربيع ، وانفتح طريق البحر أمام السفن حتى بادر البنادقة في تنفيذ العهود التي التزموا بها برسوخ امام الرب ، فبعدما تزودوا بما لزمهم من مؤن وفيرة لأغراض الرحلة، اضرموا النيران في الأخصاص التي امضوا فيها الشتاء والتمسوا عون الرب ، ثم صدحت ابواقهم بابتهاج ورفعوا أشرعتهم .

وقد اوقع مشهد السفن السرور في نفوس الذين رأوها عن

كثب ، ذلك أنها طليت بألوان مختلفة ، وكان على ظهورها خمسة عشر الف مقاتل من البنادقة والحجاج الذين الحقوهم بهم ، وفضلا عن هذا كله حملوا معهم ثلاثمائة حصان .

وماان هبت ريح شمالية لطيفة حتى انفصلوا عن معابرهم الخشبية بكل مهارة وتوجهوا نحو ميثون ومن ثم الى رودس .

واقتضت الضرورات أن يسافروا مجتمعين لامتفرقين ، وتعين عليهم - بسبب تقلب الرياح - ممارسة بعد النظر وتغيير خط مجراهم حتى لايتفرقوا فجأة ويبتعد بعضهم عن بعض ، ولهذه الأسباب ابحروا لمسافات قصيرة وخلال النهار فقط لافي الليل ، وكانوا يتوقفون وينزلون الى اليابسة في مراسٍ عديدة لقضاء حاجاتهم اليومية وتأمين المياه العذبة لهم ولخيولهم حتى لايعانوا من العطش .

بلدوين يقع في الأسر واستبداله برجل يدعى يوستاس :

وحدث في تلك الآونة أن وقع بلدوين ملك القدس في الأسر ، وكان الذي اسره هو الأمير بلك الذي سلف له واسر جوسلين وغاليران ، من قبل ، ولم يكن بلدوين يتوقع ذلك ، ولم يكن مستعدا له ، ومامن امر افرح الكفار اكثر من هذا وارهب المسيحيين وافزعهم .

وبعدما وصلتنا الأخبار الى القدس تقاطر الجميع الى مؤتمر عقد في مدينة عكا للتداول فيما ينبغي عمله والتشاور ، فكان أن وقع اختيارهم على رجل اسمه يوستاس ، وكان شجاعا واميناً ومستقيم الخلق ويتملك انذاك قيسارية وصيدا ، فنصبوه حاكما

للبلاد وقائدا للمملكة ، وكان الذي توصل الى هذا القرار بطريرك القدس ومعه أعيان رجالات البلاد ، وأمر أن يسري مفعول هذا الاجراء حتى يتيقنوا بشكل قاطع من مصير ملكهم المتوج .

كانت هذه صورة الأوضاع في منتصف أيار عندما سمعنا بغتة أن المصريين قد وصلوا عسقلان بقوتين حشدوا احداهمابحرا و الثانية قادوها برا ، فقررنا تحضير سفينة صغيرة عالية السرعة لارسال الرسل الى اسطول البنادقة لمناشدتهم الاسراع في الابحار وإغاثتنا والتفريج عنا في المخاطر التي أحاقت بنا .

حصار يافا ثانية من قبل المصريين والحاق الأضرار الشديدة بأهلها :

ثم اندفع المصريون نحو مدينة يافا ، وانطلقوا من سفنهم في موكب كبير وابهة رائعة تعزف أمامهم الأبواق النحاسية ، ثم احاطوا بالمدينة وحاصروها ، وشرعوا بدون تأخير في نصب آلات دك الأسوار وغيرها من المعدات التي كانوا قد احضروها معهم على ظهور سفنهم الكبرى ، وهاجموا المدينة من جميع النواحي وضيقوا الخناق عليها ، وقذفوها بحجارة من احجام لم يسبق لها مثيل ، ذلك انهم امتلكوا مجانيق عظيمة القوة ، قذفوا منها حجارة

الى مسافة أبعد من مدى الذشاب ، وشن رجالة العرب او السودان الذين أحضروهم معهم و برفقتهم حشد من الفرسان ، هجوما شديدا على أهل يافا ، و من كلا الجانبين رمى بعضهم بالحراب و بعضهم بالحجارة ، و رمى أخرون بالذشاب و تمكن الذين كانوا يدافعون عن المدينة بكل رجولة من الداخل من قتل بعض المهاجمين في الخارج بالطعنات المتوالية .

وحمل السودان في أيديهم دروعا بها غطوا انفسهم

واحتموا ، ودابت نساء يافا على تقديم العون المتواصل لسكانها الذين كانوا يقاتلون بكل شجاعة ، فقد قام بعضهن بتزويدهم بالحجارة وبعضهن الآخر تولى جلب الماء للشرب .

وبعد قتال استمر خمسة أيام الحق المسلمون القليل من الأضرار بالأسوار ، مع أنهم دمروا الكثير من الشرافات في أعلى الأسوار بعد قذفها بالحجارة ، ثم كان أن بلغهم نبأ اقتراب قدومنا ، فأوقفوا القتال وعزفوا بالأبواق اشارة لذلك وفككوا الات الحصار ثم نقلوها الى السفن .

ولو انهم ملكوا الجراة على إطالة القتال ولم ينسحبوا لاستولوا على المدينة بكل تأكيد ، وذلك لقلة عدد المدافعين عنها ، ثم لأنهم كانوا بالفعل قد حفروا حول السور انفاقا هنا وهناك املين في اقتحامه بكل سرعة ، علما انه كان بصحبتهم اسطول مكون من ثمانين سفينة .

معركة ضد الأتراك ـ المسيحيون ينالون النصر بفضل صليب الصلبوت :

بعدما تأكد قومنا من صحة الأخبار التي حملها نقلة الأقاويل ، وايقنوا من اقتراب المخاطر احتشدوا من جميع الأماكن ووقف جيشهم امام إحدى القلاع واسمها قاقون ، فقد قدموا من طبرية وعكا وقيسارية والقدس ، وبعدما جلبوا صليب الصلبوت الى مكان الحشد بادر قومنا الى قتال العدو قرب مدينة الرملة القريبة من اللد .

اما نحن الذين بقينا في القدس من لاتين وإغريق وسريان ، فلم

نتوقف عن الدعاء لأخواننا الذين واجهوا المحنة ، وقدمنا الصدقات للمحتاجين ، وقمنا أيضا بزيارة جميع كنائس المدينة المقدسة حيث سرنا في موكب خاشعين ونحن حفاة الأقدام .

واستيقظ قادتنا مع انبلاج الفجر ، فأمروا رجالهم الذين اصطفوا امامهم بانتظام في كتائبهم ، بالزحف نحو مدينة الرملة ، وبعدما منح البطريرك بركاته وغفرانه نشب القتال قرب أسدود ، وكانت هذه من قبل إحدى المدن الفلسطينية الخمسة ، وتدعى الآن (ايبنيوم) وقد تضاءل الآن شانها وباتت قرية صغيرة .

ولم يطل القتال في هذه المعركة ، إذ ما أن رأى الأعداء رجالنا المسلمين يزحفون نحوهم بثبات ونظام رائع ، حتى شرع فرسانهم بالفرار ، ولم يتوقفوا كأنما أصابهم مس من جنون ، فقد دب فيهم الهلع بدلا من التحكم في عقولهم ، وجرى ذبح مشاتهم ، وخلفوا على ارض المعركة جميع خيامهم ومقتنياتهم من كل صنف ولون ، ولقد انتزعنا منهم ثلاث رايات وعدد كبير من العربات المحملة بالمتاع ، وذلك بالاضافة الى اربعمائة جمل وخمسمائة حمار .

ومن بين الستة عشر الف من الأعداء الذين قدموا الى القتال وشاركوا في المعركة قتل ستة الاف ، وبالمقابل قتل عدد ضئيل من رجالنا ، وكان عدد رجالنا هؤلاء حسب بعض التقديرات ثمانية الاف ، غير انهم كانوا شجعانا ، على درجة عالية من البراعة في القتال ، ملهمين واثقين بالرب وبمحبته ومعتمدين كليا على هذه الثقة .

شعر :

ظهرت الشمس اثني عشرة مرة في برج الجوزاء
عندما هلك القوم المتوحشون بقدرة من الرب
وطرحت جثثهم على سهول أرض فلسطين
وغدت طعاما للذئاب والضباع .

استقبال أهل القدس لصليب الصلبوت :

بعدما حاز المسيحيون على النصر في المعركة ، بقوة الرب وتعظيما لاسمه وتمجيدا للمسيحية ، رجع البطريرك الى القدس ومعه صليب الصلبوت ، وقد استقبل بموكب حافل ، وتلقي خارج باب برج داود ، ونقل بأعلى درجات التبجيل الى داخل البازيليكا في قلب كنيسة قيامة الرب « وقدمنا الشكر للرب القدير على بركاته وكنا ننشد « الشكر للرب » .

وصول البنادقة ومعركتهم البحرية مع المسلمين :

وصلتنا في اليوم التالي لهذا النصر المبين اخبار اخرى اثلجت صدورنا ، فقد سمعنا أن أسطول البنادقة قد دخل الى عدد من المراسي الفلسطينية ، وكانت الشائعات قد توقعت وصوله منذ فترة مديدة ، وحال وصول الدوج (دومنغوميشيل) قائد اهل البندقية وأمر اسطولهم الى عكا ، أعلم على الفور بالذي حدث في يافا في البحر والبر ، واخبروه كيف أن المصريين اوقعوا بعض الدمار بقدر ما استطاعوا ثم غادروا عائدين بعدما نفذوا مهمتهم ، واذا رغب الدوج في مطاردتهم فبإمكانه إدراكهم بعون الرب.

و على الفور تداول الأمر مع بحارته و تشاور ، فقسم اسطوله الى أقسام ، وتولى هو شخصيا امرة عمارة بحرية منه ، وأبحر نحو يافا ، ثم بعث القطع الأخرى الى عرض البحر ، وكان هذا دهاء منه وخداعا بغية جعل المسلمين يظنون أنها توجهت الى قبرص لجلب الحجاج من هناك .

وعندما رأى المسلمون ثماني عشرة سفينة من اسطول البنادقة تقترب منهم ، شرعوا بالتهليل ، وكأن المغانم وقعت فعلا بأيديهم ، واستعدوا للابحار نحوها لمنازلتها وقتالها بشجاعة في المعركة .

وتظاهر رجالنا بالخوف من القتال ، وكانوا بالفعل يخدعون الأعداء وينتظرون بدهاء وصول العمارة البحرية الأخرى التي كانت تفوق الأولى عددا ، ومكثوا يترقبون التحاقها بمؤخرة الاسطول ولهذا لم يجنحوا الى الفرار ولم يقدموا على القتال حتى شاهد المسلمون السفن تلتحق بمؤخرتنا واشرعتها منشورة ، ومجاذيفها مشدودة .

وعندما حدث ذلك ارتفعت معنويات البنادقة فانقضوا بضراوة على عدوهم وكانت شجاعتهم تجل عن الوصف ، ولقد حاصروا سفن الأعداء من كل جانب ، حتى لم يعد أمام اي منها مخرج ، وفي الحقيقة لقد تم حصر المسلمين بطريقة مذهلة حتى انه لم يتح لا للسفن ولا للبحارة النجاة من اي اتجاه ، في حين ركب أهل البندقية ظهور سفنهم وأمعنوا في بتر أوصال رجالهم .

من المحال تصديق هذه الحقيقة ، لأن ما من أحد سمع بمثلها من قبل ، فقد تلطخت أقدام المهاجمين بالسفن بالدماء ، وبذلك أمكن الاستيلاء على هذه السفن المحملة بالثروات الهائلة ، وبعدما ألقيت

جثث القتلى خارج السفن كنت ترى البحر وقد صبغت مياهه بالأحمر الى مسافة اربعة اميال .

ثم حدث أنه بعدما أبحر رجالنا حتى ما بعد عسقلان يبحثون ويستطلعون الأوضاع اكتشفوا وجود عشر سفن أخرى محملة بالمؤن من مختلف الأصناف ، وكانت قادمة نحوهم ، وكانت هذه السفن تحمل قطعا خشبية عظيمة الطول ومستقيمة مناسبة لصنع الآلات الحربية ، فاستولوا على هذه السفن واستحوذوا على ما حملته من معدات حربية وذهب ونقود فضية وتوابل وأصناف عديدة من العطور .

ثم أحرقوا على رمال اليابسة بعض السفن التي جنحت الى الشاطىء ، غير أنهم أحضروا اكثرها الى عكا دون أن تمس بأذى ، وهكذا كافأ الرب عبيده بأضعاف مضاعفة من العطايا الوفيرة .

لم يتخاذل أهل القدس مع أن ملكهم كان أسيرا :

طوبى لقوم الرب دوما معينهم ، طوبى للأمة التي الرب الههـا (المزامير : ٢٣ /١٢) فقد قال الوثنيون : « لنخرج الآن ونبيد الأمة المسيحية ابادة كاملة ونمحو ذكرها عن وجه البسيطة ، فالمسيحيون الآن بلا ملك ، وهم أشبه بأعضاء الجسد الذي بلا راس » حقا قالوا هذا غير أنهم نسوا أن الرب مليكنا .

لقد كنا قد فقدنا بلدوين ، لكننا اتخذنا الرب ملكا لنا جميعا وتضرعنا اليه وقت حاجتنا ، فبه انتصرنا باعجاز ، فلعل الذي فقدناه عرضا لم يكن ملكا ، فالذي أحرز النصر لنا مؤخرا ليس هو ملك القدس فحسب بل ملك الدنيا بأسرها ، وعلينا أن نعترف بحق انه كان لدينا في المعركة فعلا ملك ، وهو لدينا الآن ولسوف يكون

دومـا لدينا ، ذلك اننا سـنؤثره في جميع مسـاعينا على جميع الآخرين ، « فـالرب قـريب مـن كل الذين يدعونه ، الذين يدعونه بحق » (مزامير : ١٤٥ / ١٨) .

لقد تجلى علينا فرآنا في محنتنا نعاني من سوء العذاب ، فغمرنا برافته وترفق بنا لخضوعنا واطلق سراحنا ، « فمبـارك الرب الذي لم يسلمنا فريسة لاسنانهم » (مـزامير : ١٢٤ / ٦) لقـد قـاتل معنا ضد اعدائنا ، وسماته ان يغلب دوما ويقهر ابدا ، فهـو يقهـر ولا يقهر ، وهـو لا يخـدع ، إنه الملك بحـق ، ذلك انه يحـكم بالعدل ، وكيف حقا يكون ملكا من تتغلب عليه عيوبه دومـا ، وكيف يمكن لانسان ان يدعى الملك إذا ما داب على تجاوز القـانون دائمـا وابدا ؟ ذلك ان الذي لا يراعي ناموس الرب ولا يحافظ عليه ليس له ان يطاع ، لأن الذي لا يخاف الرب سوف يخاف الانسان الذي هـو عدوه ، اما من كان زانيا وحانثا بقسمه وفـاسقا فقـد خسر لقـب الملك ، وهل يصح أن نثق بمحتال مخادع ، فإن رضي به من لم يتسم بالتقوى فكيف يصـغي اليه الرب ويسـتمع ؟ فمـن كان سـالبا للكنائس ، ظالما للفقراء ، لا يحكم بـل يمـارس الطغيان ، فلنتعلق بالملك في عليين ، ولنضع ثقتنا فيه وأملنا ، فهو لن يخيب مسعانا في الآخرة .

وفاة يوستاس وخلافة وليم له :

مات في هذه الفترة الصعبة يوستاس الذي كان قد اختير وصـيا على البلاد ، وحدث ذلك في اليوم السـابع عشر قبـل بـداية شـهر تموز ، ثم استقر القرار على اسـتخلاف وليم بـوريس ، الذي كان يمتلك طبرية في ذلك الحين .

اطلاق سراح الملك بلدوين من الأسر :

برحمة من العناية الربانية ، نجا في منتصف شهر آب ، بلدوين ملك القدس من أغلال بلك وسجونه ، فقد كان قد اعتقله في احدى القلاع الكبيرة (خرتبرت) ، وكان موقع هذه القلعة حصينا منيعا يصعب الاستيلاء عليه لعلوه الكبير وارتفاعه ، وكان مع بلدوين في الأسر جوسلين كونت الرها والآخرون سواه ، والحديث عن هذه القضية قد يطول لكنه مغلف بالتبريكات الربانية والعناية العلوية وموشح بالمعجزات .

فبعدما أصابهم الوهن وتعبوا كثيرا في أسرهم في تلك القلعة لأمد طويل دون تلقي أية مساعدة من أصدقائهم ، بعد هذا شرعوا يتدارسون فيما بينهم جميع صنوف الحيل والمخارج وتأمين الخطط التي تساعد على خلاصهم من هناك ، ولذلك دابوا على طلب العون من أصدقائهم أينما وجدوا وراسلوهم بوساطة مبعوثين مؤتمنين ، وبذلوا قصارى جهدهم للتآمر مع الأرمن الذين كانوا يقطنون من حولهم في سبيل تحقيق هذه الغاية ووعدوا أنهم إذا ما تمكنوا من الحصول على العون من أصدقائهم في الخارج ، فسوف يظل الأرمن أعوانهم المخلصين وسوف يحافظون على ذلك .

وبعدما تم الاتفاق على ذلك ، وبعد تبادل الهدايا ومختلف الوعود ، وتبادل حلف الايمان ، جرى بعث خمسين رجلا من مدينة الرها ، وتحرك هؤلاء نحو القلعة بكل دهاء وبراعة ، حيث قدموا متنكرين بزي رعايا يتنقلون ويبيعون السلع ، وعندما سنحت الفرصة تحركوا حتى وصلوا الى ابواب القلعة الداخلية .

وبينما كان شحنة القلعة جالسا يلعب الشطرنج بدون احتراز قرب البوابة مع واحد من الرجال المخلصين لنا ، اقترب منه عملاؤنا

بكل حذر وبمنتهى المكر وكأنهم يودون تقديم شكاية له من مظلمة احاقت بهم ، لكن مالبثوا أن تخلوا عن حذرهم ووثبوا بدون خوف وقد اشهروا خناجرهم فقتلوا الشحنة فورا ، واستولوا على الحراب التي وجدوها هناك وفتكوا بالحرس وذبحوهم بكل رجولة وبلا تردد .

ودب الهرج والمرج هناك وسادت الفوضى وانتشرت في الداخل والخارج ، وكل من بادر الى مشهد الأحداث سرعان ما عوجل فلقي مصرعه ، والحق كان هناك قرابة مائة من الاتراك ، ومع هذا تم اطلاق سراح الملك بالحال ، وكان بعض الأسرى ما يزالون بالاصفاد عندما تسلقوا السلالم الى قلة القلعة ، وهكذا كشفت الحقيقة ، فقد كان في القلعة نفسها زوجة بلك مع عدد كبير آخر من الرجال المقربين اليه كثيرا وذوي المكانة لديه ، ولهذا ما لبث الأتراك ان احاطوا بالقلعة وطوقوها من جميع الجوانب ومنعوا من كان في داخلها من الخروج منها ومن كان خارجها من الدخول اليها ، ونفذوا ذلك بكل صرامة وشدة ، واوصدت الأبواب واحكم اغلاقها بالمسامير .

كونت الرها ينجو من الأسر

ما اظن أن علي الالتزام بالصمت حيال مصيبة تراءت لبلك وكانت اشبه بطيف خيال ، فقد تراءى له (حسبما روى هو نفسه ذلك فيما بعد) أن جوسلين سوف يقدم على قلع مقلتيه ، فأخبر مفسري الأحلام بذلك على الفور ، ورغب أن يعلم منهم تفسير هذا الحلم ، فقالوا له : « حقا سوف يحل ذلك بك ، أو ما لا يقل عنه سوءا إذا ما وقعت بين يديه » وما أن سمع ذلك حتى بادر بلك بارسال عدد من رجاله لقتل جوسلين ، و كان هذا قد نجا بحمد الرب ، وتخلص من الأسر بالطريقة التي سوف نصفها ونحكيها الآن :

عقد بلدوين مشاورات جادة مع جميع رجاله ، وبحث عن الوسيلة المجدية التي يمكن أن تنقذهم من الأسر ، وعندما خيل اليهم أن الوقت الموائم قد جاء ، وضع اللورد جوسلين حياته على حافة الموت ، وأودع ذاته بين يدي خالق الأكوان وتسلل من القلعة يتبعه ثلاثة من الخدم ، ومر جوسلين بين صفوف حشد الأعداء في ضوء القمر ، وكان يتملكه الخوف مثلما تدفعه الجراة ، وما لبث أن ارجع واحدا من الخدم الى الملك وحمله خاتمه ليظهر له انه شق طريقه عبر المحاصرين وفقا للاتفاق المعقود بينه وبين بلدوين .

وبعد فرار واختباء ومسير في الليل أكثر منه في النهار وصل أخيرا الى نهر الفرات ، وقد اهترات نعلاه وأوشك أن يكون حافي القدمين ، وبسبب عدم امتلاكه لقارب يركبه ، ومع انه لم يكن يحسن العوم ، قام بنفخ قربتين من الجلد كان قد حملهما معه ، ووضع نفسه فوقهما ، ورمى بذاته في النهر ، وقد بذل رفيقاه كل جهد للحفاظ عليه ، وتمكنوا بعون الرب من احضاره سالما الى الشاطىء .

وكان التعب قد هده بعد هذه الرحلة الفريدة ، وأضناه الجوع ، وعطش عطشا شديدا ، واستولى عليه الضيق ، ولم يكن أحد حوله ليقدم له يد العون ، وبعدما شعر بالتعب الشديد والانهاك اثقله النعاس ، فسمح لنفسه بالنوم تحت شجرة جوز وجدها هناك ، والتحف ببعض الأغصان المقطوعة والعليق حتى لا يتعرف عليه من يراه ، وأمر واحدا من خدمه أن يبحث عن الأهالي ويتوسل اليهم ليعطوه أويبيعوه خبزا بأي ثمن ، ذلك أنه كان يتضور جوعا .

وفي حقل مجاور وجد الخادم ريفيا ارمنيا يحمل بعض التمر وعدد من عناقيد العنب ، وبعدما بادره بالكلام بكل حذر جلبه معه لمقابلة

سيده ، ذلك أن جوسلين كان بوده ـ لشدة جوعه ـ الحصول ولو على مثل هذا الزاد .

وما أن اقترب الفلاح من جوسلين حتى عرفه ، فوقع عند قدميه وحياه قائلا : تحياتي اليك يا جوسلين ، فارتاع هذا لما سمعه فهو لم يرغب قط بسماع ذلك ، فأجابه«أنا لست من تمنيت بمخاطبتك ، أعان الرب جوسلين حيث كان»فأجابه الريفي : «أتضرع اليك أن لا تنكر هويتك ، فأنا أعرفك تمام المعرفة ، ولكن أعلمني ما الذي جرى لك في هذه الديار ، وأرجوك ألا تخشى مني أو تتوجس شرا ».

فأجابه الكونت إرث لحالي أيها الغريب واشفق علي ، إنني اتوسل اليك الا تخبر أعدائي بالذي أصابني ، وخذني الى مكان امن ، فتستحق أجرا على ذلك هذه القطعة من النقود ،ذلك أنني هارب بمعونة الرب ، بعدما نجوت من أسر بلك و قيوده ، من داخل القلعة التي تدعى خرتبرت ، و الواقعة في الجزيرة في ذلك الجانب من الفرات

ولسوف تحسن صنعا لو أنك قمت بمساعدتي في وقت حاجتي للمساعدة حتى لا اقع مجددا بين أيدي بلك وأواجه الهلاك المحتوم ، وإذا ما رضيت وقدمت معي الى قلعتي في تل باشر فلسوف تتحسن أحوالك وتعيش عيشا رغدا الى آخر أيام حياتك ، وبناء عليه أخبرني ما الذي تملكه في هذه المنطقة حتى أعوضه عليك وازيدك عن طيب خاطر في مقاطعتي إذا ما رغبت .

فرد عليه الفلاح : أنا لا أريد منك شيئا سوى أن أقودك بأمان الى حيث تشاء ، فأنا أنكر كيف تعاطفت معي في أحد الأيام وشاركتني في تناول الطعام ، ولذلك إنني مستعد لرد الجميل اليك ، ولدي يا مولاي اللورد زوجة وطفلة صغيرة وحمار صغير وأختي وثوران ، وها انذا أضع نفسي كلية تحت تصرفك وبامرتك ، فأنت رجل عاقل مدبر ، ولسوف أمضي معك بكل ما أملك

الآن ، يضاف الى هذا لدي أيضا خنزير صغير سوف أطهـوه الآن وأحضره لك .

فأجابه جوسلين : لا ياصاحبي ، إنه ليس من عادتـك أن تـأكل خنزيرا كاملا في وجبة واحدة ، فلاتثر شكوك الجيران بك .

وجمع الأرمني كل مـــا كان لديه ثـــم غادر معـــه جســـبما اتفقا ، وركب الكونت على ظهر الحمار الصغير ، مع انه كان ممـن اعتاد على امتطاء أفخر البغال ، ووضع أمامه طفلة الفلاح الصغير وهكذا فإن الذي لم يكن والدها حقا حملها كما لو كان والدها ، وقد فعل ذلك ، مع أنه لم يكن له ابنة من صلبه ، حتـى يجعـل الذين لا يعرفون يخيل اليهم انه راغب حقا في أن تكون له ذرية .

غير أنه عندما بدأت الطفلة بالصراخ والبكاء قلق جوسلين ، ذلك أنه لم يتمكن من اسكاتها بأي وسيلة ، ولم تكن هناك مرضعة تتولى ارضاعها أو تغني لها ، ففكر في أن يتخلى عن هذه الرفقة حتـى لا يتعرض للخطر ، وأن يتابع سيره وحيدا بأمان ، لكنه عندمـا أدرك أن ذلك قد يزعج الفلاح ، أثر عدم ازعاجه وثابر في تنفيذ المهمة التي أخذها على عاتقه .

ولدى وصوله الى تل باشر جرى استقباله مع ضيوفه بـكل فـرح وسرور ، فابتهجت زوجته ، وهلل أهل بيته ، ولا يمكننا أن نشـك بحجم البهجة التي شعر بها الجميع ولنا أن نتصور كم مـن دمـوع الفرح قد ذرفت آنذاك ، وكم كان حجم التنهدات هناك أيضا ، أمـا الفلاح فقد أعطي بدون تقاعس ـ مكافأة طيبة ، ومنح بدل زوج من الثيران زوجين .

ولأن الكونت جوسلين لم يتمكن من البقاء طـويلا بين أصـحابه واله فقد توجه فورا الى انطـاكية ، وسـافر منهـا مبـاشرة الى

القدس ، وهناك قدم الشكر للرب الذي تفضل عليه برحمته ، ووهب القيدين اللذين حملهما معه ليعلقا عطيه منه بكل تبجيل على الجبل الذي صلب فيه المسيح ، وذلك تذكارا لأسره وتمجيدا لخلاصه ، وكان أحدهما من الحديد والآخر من الفضة .

وبعد ثلاثة أيام غادر القدس باتجاه طرابلس للحاق بموكب صليب الصلبوت الذي سبق وأرسل الى هناك ، ذلك أن جيش الرب كان في طريقه مع الصليب الى خرتبرت قلعة بلك ، حيث كان الملك وعدد من رفاقه محبوسين لكن غير مقيدين بالسلاسل ، لأنهم كانوا آمنين داخل الحصن .

مبارك هو الرب الذي يبسط ارادته وسلطته على العالمين ، فهو حين يشاء يطرح الجبار من العلياء ويرفع الوضيع من الرغام ، ففي الصباح كان بلدوين ملكا يحكم ، وفي المساء أصبح عبدا يخدم ، والذي حدث لجوسلين لا يقل عن هذا ، ومن الواضح انه ليس في هذا العالم شيء مؤكد أو شيء ثابت ، فلا شيء مرغوب فيه يدوم طويلا ولهذا ليس من الخير أن يتلهف الانسان على متاع الدينا ، بل من الأفضل أن يتجه بقلبه نحو ربه ، ودعونا لا نركن الى متاع الدنيا حتى لا نخسر الحياة الأبدية في الآخرة .

شعر :

حسب تقديري أتممت أنا الآن سنتي الخامسة والستين
غير أنني لم أرقط ملكا مثل هذا طريح السجن
ولست أعلم فيما إذا كان ذلك يعني شيئا ولكن الرب يعلم .

حملة أهل القدس واعتقال الملك بلدوين ثانية :

وبينما كان رجال القدس يزحفون نحو مكان متفق عليه ، انضم اليهم رجال طرابلس ثم رجال انطاكية في انطاكية ، غير انهم عندما وصلوا جميعا الى تل باشر ، علموا أن الملك الذي كان محاصرا في قلعته خرتبرت قد وقع بالأسر ثانية ، وعندما عرفوا ذلك غيروا خططهم ، وصدرت الأوامر بالعودة فورا ، ورغبة منهم في اكتساب شيء ما لأنفسهم ، صدحت الأبواق مؤذنة بالتحرك ، لكن نحو مدينة حلب ، وقد دمروا واتلفوا كل ما وجدوا خارج اسوارها بعدما ارغموا بعنف الذين خرجوا الى قتالهم على التقهقر الى داخلها ، وبعد أن مكثوا هناك اربعة أيام لم ينجزوا خلالها شيئا ، استقر قرارهم على العودة الى بلادهم لأنهم بدأوا يعانون من شح المؤن ، ومع هذا فقد بقي جوسلين في منطقة انطاكية .

وبعدما رجع رجال القدس ووصلوا الى عكا ، وقبل أن يثيروا انتباه المسلمين في الجوار ، عبروا نهر الأردن فجأة ، وبعد أن تجولوا على عجل في المنطقة التي يحدها جبل جلعاد ووادي عربة ، أسروا عددا كبيرا من المسلمين من الجنسين ، واستولوا على كثير من الدواب والماشية ، ثم عادوا بعد ذلك واتجهوا نحو منطقة طبرية القريبة منهم ، واصطحبوا معهم قافلة عظيمة من الجمال والماشية وكذلك الأطفال والبالغين ، وبعدما وزعوا الغنائم فيما بينهم حسب الأعراف والعادات ، احتشدوا في القدس من جميع الأنحاء ، ثم أودعوا صليب الصلبوت ، الذي كانوا قد حملوه معهم ، في مكانه .

ولزاما علي أن أعود الآن الى صلب الموضوع الذي ابتعدت عنه لبعض الوقت .

كيف حاصر بلك الملك واعتقله ثانية :

ما أن سمع بلك بما جرى في خرتبرت ، وعلم بخبر نجاة الكونت جوسلين من الأسر ، حتى بادر بالذهاب الى هناك بأقصى سرعة أمكنته ، وخاطب الملك بمعسول الكلام وطلب منه أن يسلمه القلعة ، مقابل أن يسمح له - بعد تقديم رهائن مختارة - بالمغادرة بأمان ، ثم يؤمن سفره الى الرها أو انطاكية ، وتهدد بلدوين أنه اذا لم يستجب فلسوف يلحق الشر بأحدهما أو بهما معا .

ورفض الملك فاستشاط بلك غضبا ، وهدد باعتقال الملك والاستيلاء على القلعة بالقوة ، والانتقام من أعدائه بشكل محتوم ، وبوضع دعائم الخشب داخل الفجوات التي أحدثت تحت الأسوار لكي تسند المنشئات التي فوقها ، ثم أمر بجلب الأخشاب ورمي النار فيها ، وعندما احترقت الدعائم هبطت الأسوار وانهار البرج القريب من النار محدثا ضجيجا هائلا .

وتصاعد الدخان وامتزج بالغبار ، لأن الانقاض غطت الحريق ، لكن بعدما التهمت النيران ما تحت الانقاض وظهرت السنة اللهب للجميع ، أصيب الملك بالذهول ، وتولته الدهشة ، فهذه الأحداث لم تدر بخلده ولم تكن بالحسبان ، وخابت آماله وهبطت عزيمته الى الحضيض ، فقد شل هذا الدمار حركته وأصابه ما حدث برعب شديد ، وهكذا فقد شجاعته مع رجاله ولم يعد مسيطراً على نفسه فاستسلم مع رجاله الى بلك ، ولم يأمل برحمة بلك بل بالعقاب على ما جنت يداه وأيديهم معه .

وصفح بلك عن بلدوين وأبقاه على قيد الحياة وفعل الشيء نفسه مع واحد من أبناء أخي الملك وكذلك مع غاليران ، أما الأرمن الذين قدموا العون الى الملك فقد شنق بلك بعضهم ، وضرب بعضهم حتى

الموت وشطر بعضهم الآخر بالسيف الى نصفين ، ثم نقل الملك مع ثلاثة من رجاله من القلعة وأخذهم الى مدينة حران .

لقد صعب علي التيقن من حقيقة ما حصل هناك ، لأن هذه الأحداث وقعت بعيدا عني ، ومع هذا فقد دونت هنا ـ بكل ما أوتيت من دقة ـ الذي أخبرني به آخرون .

شعر :

انتهت هذه السنة بشح في الأمطار ، منذرة بالقحط
وسبب ذلك كثيرا من الآلام الى أهل القدس
وقد مضى علينا حتى الآن أربع وعشرين سنة
منذ قيام حملة الحجاج الشهيرة التي قدمت من جميع البلدان .

التحضير لحصار صور :

في سنة ١١٢٤ لتجسيد مولانا المسيح احتفلنا بميلاد المخلص في بيت لحم وفي القدس حسب الأصول ، وقد شارك دوج البندقية مع رجاله في هذه المراسم واحتفلوا بخشوع ، وتم بعد هذا الاتفاق طوعا ، وبرضى من الطرفين ، وتوكيد ذلك بالايمان على حصار اما مدينة صور أو عسقلان بعد عيد الغطاس (٦ كانون الثاني) .

وكنا نفتقر الى الأموال ، وهذا ما أقعدنا عن العمل ، ومع ذلك جمعنا في تلك الآونة مبلغا كبيرا من المال اقترضناه من الناس فردا فردا بهدف الدفع للفرسان و الرجالة المأجورين ، حيث لم يكن من

الممكن تنفيذ هذا الحصار المقترح بدون دفع الأموال الى الرجال ، كما اضطررنا الى رهن أنفس زخارف كنيسة القدس حتى نحصل على القروض من المسلفين.

وحسب الاتفاق اجتمع الجميع من كل حدب وصوب في المكان المحدد.

شعر:

عندما انتعش برج الدلو بحرارة الشمس للمرة الثالثة.
غادر الناس جميعا القدس لمقابلة العدو
وحصل ذلك يوم الأحد ، غرة الشهر القمري.

حصار صور على يدي البطريرك والبنادقة :

بعدما وصلوا الى عكا ، أعدوا مع أهل البندقية ما لزم من ترتيبات للزحف نحو صور والقيام بحصارها، وفي اليوم الخامس عشر قبل بداية شهر آذار طوق البطريرك وبصحبته جميع أتباعه والدوج ومعه بحارته وسفنه مدينة صور .

شعر :

عندما دخلت الشمس في برج الحوت.

ولدى سماع رجال عسقلان ، الذين لم يستطيعوا كبح جماح صفاقتهم بذلك ، لم يترددوا في أن يلحقوا بنا أعظم ما استطاعوا من

الأذى ، وقسموا جيشهم في أحد الأيام الى ثلاثة أقسام ، وقادوا القسم الأكبر من كتائبهم نحو القدس ، وقتلوا ساعة وصولهم بوحشية ثمانية رجال وجدوهم يشربون النبيذ خارج المدينة.

وما أن اكتشف أمر قدومهم حتى صدحت الأبواق من فوق برج داود لاعلامنا بذلك ، وخرج فرنجتنا والسريان للقائهم والتصدي لهم ، وقاوموهم بكل بسالة ، وبعدما أنهك كل طرف نفسه في مواجهة الطرف الآخر في قتال استمر ثلاث ساعات ، انسحب أهل عسقلان ، وقد اعترتهم الكآبة ذلك أنهم حملوا معهم عددا كبيرا من الجرحى.

وطاردهم رجالنا الى مسافة قصيرة ، لكنهم لم يتجرأوا على ملاحقتهم الى مدى بعيد لافتقارهم الى الفرسان ولخشيتهم من وجود كمين ، ومع ذلك أحضروا معهم في النهاية سبعة عشر رأسا من رؤوس الأعداء وعددا مماثلا من الخيول ، ويقينا إنه لو كان لدينا فرسان لما نجا من الأعداء إلا قلة ، لكن فرساننا كانوا مع الجيش ، ثم قدمنا الحمد للرب حق الحمد على الدوام.

صور وشهرتها :

في تلك الأثناء كان أهل صور محصورين مطوقين داخل مدينتهم ، ولم يكونوا يطلبون السلام ولا هم خضعوا وسلموا ، بل اعتادوا لوفرة ثرواتهم ، وللدعم والعون الذي كان يأتيهم عن طريق البحر على الغطرسة.

وهذه المدينة هي أوسع مدن أرض الميعاد ثراء وأعظمها صيتا باستثناء حاصور التي ملكها جابين ملك الكنعانيين ، وكان ذلك في قديم الزمان ، وهي التي دمرها يشوع فيما بعد ودمر معها مدنا

اخرى كثيرة (يشوع : ١١ / ٤١,) ومن جانب آخر ذكر يوسفيوس أنه كان فيها ثلاثة آلاف مركبة حديدية وثلاثمائة ألف رجل مسلح ، وعشرة آلاف فارس ، وقاد جيشها سيسرا .

وأقام الفنيقيون هاتين المدينتين : صور وحاصور على اليابسة ، واشتهرت صور بتجارة المفرق وأكثر بتجارة الجملة الكبيرة (أشعيا : ٢٣ / ٨) واشتهرت الثانية بكثرة سكانها ، وفي الوقت الذي وقعت فيه صور على طرف البحر وقعت حاصور على المرتفعات .

وشيد الفنيقيون صور زمن هرقل عندما حكم جدعون في اسرائيل (يهودا : ١٦ / ١١ / ٤٠ ، ٧ / ٨) ذلك أن هذه المدينة في بلاد الفنيقيين ، وهي المدينة التي ذكرها أشعيا وأنبها على غرورها (أشعيا : ٣٣) وفيها صباغ الأرجوان الممتاز ، والى ذلك يرجع قولهم :« صباغ أرجواني صوري » وتعني كلمة صور الممر الضيق ، وهي تدعى « سور » بالعبرية .

واستولى شلمنصر ـ ملك الآشوريين ـ على صور خلال حروبه التي شنها على سورية وفينيقية وذلك في الفترة التي حكم فيها اليوليوس هناك ولأن أهل صور رفضوا الخضوع لملك آشور فقد حاصرهم مدة خمس سنوات ، وعن هذا كتب منانذر وأسهب أيضا يوسفيوس في الكتابة عن هذا الموضوع نفسه .

وعبر الصوريون البحر في تلك الآونة تحت امرة اليساديدو ابنة بيلوس وأسسوا مدينة قرطاج في افريقية ، ويذكر المؤرخ أورسيوس أن موقعها قد أحيط بسور امتد ثلاثين ميلا ، وكان بلا مداخل ، ويكاد البحر أن يطوقها من جميع الجهات ، وكان عرض مرساها ثلاثة أميال ، وشيد سور قرطاج من الحجارة المربعة ، وكان عرضه ثلاثين قدما وعلوه أربعين ذراعا .

وقد شغلت قلعتها مساحة تزيد على الميلين ، وكانت تدعى برسه ، لقد أنشأت اليسا قرطاج قبل تأسيس روما بسبعين سنة ، وفي السنة السبعمائة بعد انشائها دمرت ، حيث دمر أولا سورها الحجري برمته ، وجاء قدرها المحتوم على يدي بابلوس سكيبو الذي عمل قنصلا لروما لمدة سنة ، وظلت تحترق بعد تدميره لها ببؤس لمدة سبعة عشر يوما كاملا .

من استولى على صور أو حاصرها في الماضي:

ووهن امر صور السالف ذكرها ، وبقيت غير آهلة بالسكان لمدة سبعين سنة ، حسبما ورد في سفر أشعيا (أشعيا : ٣٣ / ١٧،١٥) ، وكان عندما تمرد أهل قبرص على صور قهرهم الملك اليوليوس ، كذلك هاجم شلمنصر ملك آشور صور ثانية ، ثم انسحب ، وذلك في الوقت الذي استسلمت له فيه مدينتا صيدا وعرقة ـ التي تدعى أكتيبس ـ وكذلك صور القديمة ومدن أخرى كثيرة .

ولما لم تخضع له صور ، زحف ضدها بوساطة اسطول تألف من ستين سفينة وتسعمائة مجذاف ، كان قد زوده بهم الفنيقيون ، فتصدى لهم الصوريون باثنتي عشرة سفينة ، ومزقوهم وبددوا شمل سفنهم ، وأسروا منهم خمسمائة رجل ، ولهذا طارت سمعة صور وعظم صيتها .

وعاد ملك آشور وأقام مراكز حراسة على نهر المدينة وقنواتها ليحول بين الصوريين وبين جر المياه وشربها ، وصبر الصوريون على هذه المحنة مع أنها طالت مدة خمس سنوات ، حيث كانوا يشربون المياه من آبار حفروها ، وكل هذا جاء مدونا حول شلمنصر ملك آشور في وثائق صور .

وهذا الملك هو الذي حاصر السامرة واستولى عليها في السنة السادسة لحكم الملك حزقيال ، وهو الذي حمل اسرائيل الى السبي في آشور(الملوك الثاني: ١٧ / ٣ ـ١٨٦ / ٩ ـ ١١)وكان الذي حكم قبل شلمنصر فول ملك الآشوريين (الملوك الثاني: ١٥ / ١٩) وبعده تغلا فلا سر ملك آشور الذي استولى على قادش وحاصور في نفتالي قرب بانياس ، وجلعاد ، والجليل بأسره ، وسبى أهلها الى آشور (الملوك الثاني: ١٥ / ٢٩) ثم جاء سرجون ملك آشور ، وهو الذي بعث ترتان ليحارب أشدود وقد استولى عليها ترتان (أشعيا : ٢٠ / ١ ـ في سنة قدوم ترتان الى أشدود حين بعثه سرجون ملك آشور ، فحارب أشدود أخذها) وهكذا دمرت أرض الميعاد بسبب خطايا أهلها ، وتعرضت للسبي على يد الآشوريين أولا ثم على يد الكلدانيين .

وحاصر نبوخذ نصر ملك كلدان وبابل مدينة القدس ، واستولى عليها ، ولهذا لجأ الملك صدقيا الى الفرار ، غير انه وقع بالأسر على مقربة من أريحا ، ثم حمل الى ملك بابل الى البلدة التي تدعى ربلة في بلاد حماة ، ويذكر جيروم أن حماة الكبرى في أنطاكية ، وحماة الصغرى في أبيغانيا ، وهناك أمر نبوخذ نصر بقلع عيني صدقيا وبقتل بنيه في حضرته ، ثم حضر نبوزرادان قائد شرطة الملك ، وأحرق بيت الرب وبيت الملك ، وهدم جميع أسوار القدس المحيطة بها .

وبعد أمد من الزمن جاء الملك الاسكندر فحاصر صور واستولى عليها ، كذلك أخضع صيدا وقبل ذلك دمشق ، كما احتل غزة بعد حصار دام شهرين ، لكنه كان قد حاصر صور لمدة سبعة أشهر ، ثم توجه الاسكندر بسرعة نحو مدينة القدس حيث استقبل بكل حفاوة وتكريم ، ولذلك خلع على الكاهن الأعظم ، واسمه جيدوه أسمى درجات الشرف ، ودخل الاسكندر منفردا ، فقدم التبجيلات اللائقة لجيدوة ، الذي وضع على رأسه قلنسوة وارتدى ثوبا ارجوانيا

مذهبا ، وحمل صفحة ذهبية خط عليها اسم الرب ، وبعدما تدبر الاسكندر أمور القدس قاد جيوشه ضد المدن الأخرى .

وبعد سنين طوال ، وبسبب آثام اليهود تحدى أنطيخوس أبيفانس ناموسهم ، وقمع جماح المكابيين بشدة ، وجاء بعده بومبي فأطاح بأهل القدس بشكل محزن ويبعث على الأسى ، وأخيرا جاء فسباسيان وابنه تيتوس ، وقد دمر تيتوس القدس دمارا شاملا ، وهكذا نجد أن القدس والمناطق المحيطة بها والتابعة لها عانت كثيرا وتألمت في تعاقب الأحداث القديمة وحتى يومنا هذا .

وجل أراضي فلسطين مع جزء من فينيقية ، التي نالت اسمها من فونكس أخو قدموس ، هي جرداء قاحلة ، ثم هناك السامرة وأراضي الجليل ، وتقسم بلاد الجليل الى قسمين : الجليل الأعلى والجليل الأدنى ، ويحدهما من الجانبين فينيقية وسورية .

ويمتد الجزء الواقع فيما وراء الأردن طولا من مقاورير الى فحل وعرضا من عمان الى الأردن ، وتحده شمالا فحل وغربا الأردن ، وجنوبا بلاد موآب وشرقا العربية وعمان وجرش ، وتقع السامرة مابين يهودا والجليل ، وتمتد يهودا عرضا مابين الأردن ويافا ، وتقع مدينة القدس في وسطها وهي سرة البلاد .

ويمتد الجليل الأدنى من طبرية الى زيلون فعكا والكرمل وجبال صور ، ويضم : الناصرة ، وصفورية ، وهي بلدة منيعة ، وطابور وقانا ، ومدنا أخرى كثيرة ، ويحده لبنان ومنابع نهر الأردن التي تدعى الآن بانياس أودان ، أو قيسارية فيليب وتقع حوله بلاد الطراخونيين وبلاد الأنباط ، والى الجنوب منه السامرة وسيزيوبولس التي تعرف باسم بيسان

وتحد يهودا مدينة بير السبع ، وتضم يهودا تمنة واللد ويافا ويبنا ، وتكوه والخليل واشتول ، وزورا وكثيرا غيرها .

وبعدما سلكت سبلا متشعبة أعود الآن الى صلب الموضوع بعدما ابتعدت عنه فترة طويلة .

انتصار أهل انطاكية على الترك ومقتل بلك :

في الوقت الذي كنا فيه نعمل بكل نشاط خارج صور ونجهز آلات الحصار بالعناية اللازمة ، لم يتوقف بلك عن قيادة جيشه وأحلافه ضدنا لقتالنا ، فوصل الى مدينة منبج ، قادما اليها من مدينة حلب وكان ذلك في أوائل شهر أيار ، وكان برفقته خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف راجل ، وعندما رفض صاحب منبج تسليمها له دعاه بلك الى الاجتماع به خارج المدينة ، وهناك غدر به وقطع رأسه .

ثم حاصر بلك المدينة دون تمهل ، ووصل الخبر الى جوسلين ، وكان آنذاك في أنطاكية ، فاندفع نحو منبج ومعه رجال أنطاكية ، ومع أن جيش المسيحيين كان قليل العدد ، غير أن جوسلين لم يخش من الزحف ضد حشود الكفار ، ولم يمض وقت طويل حتى نشبت معركة حامية الوطيس .

وبعون الرب هزم الترك ثلاث مرات ، غير انهم ظلوا يقاتلون بكل جسارة بعد هذه المرات الثلاث ، وقاد بلك ـ الذي اصيب بجرح مميت ـ القتال وهو يعاني من سكرات الموت ، وعندما اكتشف رجاله ذلك فر منهم من استطاع الفرار ، وتهيأت أمامه السبل ، والحق أن عددا كبيرا ممن تمكن من الفرار لم يتمكن من النجاة ، ولقد روي أن ثلاثة آلاف فارس منهم لاقوا حتفهم ـ غير أن عدد الرجالة لم يعرف بالضبط ـ وقد سقط من فرساننا ثلاثون قتيلا ، وكذلك ستون من رجالتنا الذين كانوا يسوقون الدواب .

وأراد جوسلين أن يتأكد من وفاة بلك ومن عدم نجاته ، فتفقد رجاله جثث القتلى وبحثوا بينها حتى عثروا على جثة بلك ، وقد

تحققوا منه بالشارات المألوفة على درعه لمن كان يعرفها ، وقطع رجل رأس بلك ، وحمله الى جوسلين مهنئا ، فتسلم منه أربعين قطعة نقدية ، وفاء بوعد كان قد قطعه له .

وأمر جوسلين بالحال بحمل رأس بلك الى أنطاكية ، مؤشرا على نصره ، ثم بعثه الينا ، وكان الرجل الذي حمل رأس بلك الى صور والقدس داخل جراب ، قد روي لنا جميعا الرواية ووصف ماحدث لأنه كان ممن شهد هذه المعركة الجديرة بالذكرى .

وفي الحقيقة كان هذا الرسول تابعا لجوسلين ، وبما أنه حمل هذا النبأ المفرح الى جيشنا المعسكر أمام صور ، فقد خلع عليه سلاح فارس ، فترقى من مرتبة تابع الى مرتبة فارس ، وكان الذي منحه المرتبة كونت طرابلس .

وحمدنا جميعا الرب وشكرناه لأن بلك ذلك التنين المخيف المرعب والهائج الذي ظلم المسيحية وداس عليها ، قد أخمدت أنفاسه أخيرا .

شعر :

اشرقت الشمس تسع عشرة مرة في برج الثور عندما خر بلك صريعا ، بعدما خانه الحظ .

انظر وتمعن كيف تحقق تفسير الحلم الذي ذكرناه من قبل ، الحلم الذي روى وصفه بلك وهو يتنبأ بموته وكان ذلك بعدما نجا جوسلين من الموت بأعجوبة ، وفي الحقيقة لقد حطمه جوسلين تحطيما كاملاً وهشمه إذ جرده من الرأس والأعضاء .

شعر :

لارأى بلك ولاسمع ولاتكلم ولامشى ولم يبق له موضع في الأرض ولافي السماء ولا في البحار .

الذي جرى أثناء حصار صور

عندما اخلد الذين القوا الحصار على صور الى الراحة في احد الأيام ، اغتنم الصوريون الفرصة واجتمعوا من ترك ومسلمين ، وفتحوا ابواب البلد على مصاريعها وانقضوا بسيوف مصلتة على اشد الاتنا قوة ومناعة ، وقبل أن يتمكن رجالنا الذين كانوا يحرسونها من حمل سلاحهم ، داهمهم الأعداء وابعد وهم عنها بعدما اثخنوهم بالجراح ، ثم اشعلوا النار في الآلات ، وكانت هذه الآلات تستخدم لتدمير الأسوار وابراج المدينة برميها بالحجارة واحداث ثغرات في وسائل دفاعها .

وقد خسرنا في هذا الانقضاض ثلاثين من رجالنا ، لكن العدو خسر ضعف ذلك العدد ، كما واصاب اهل المدينة رجالنا بجراح كثيرة والحقوا بهم خسائر جمة من خلال الرشقات المتوالية بالنبال والحراب والحجارة من أعالي السور .

وابحر في اثناء هذا كله جماعة من البنادقة لم يتجاوز عددهم الخمسة في مركب صغير ، فواتاهم ـ كالعادة ـ الحظ السعيد ، وسطوا على دار صغيرة على مقربة من السور ونهبوها ، وقطعوا راسي رجلين وجدوهما هناك ، وعادوا ادراجهم على الفور فرحين مسرورين بغنيمتهم المتواضعة ، ووقع هذا الحادث في اليوم الحادي عشر قبل بداية شهر حزيران .

لكن ذلك لم يكن كبير النفع ، فقد تمكن بعض الصوريون قبل ذلك بوقت قصير من سرقة قارب في احدى الليالي ، وسحبوه الى مرسى المدينة ، ذلك أن مثل هذه الأمور تحدث كثيرا في مثل هذه المناوشات .

شعر :

يخفق انسان وينجح أخر ، ويفرح انسان ويبكي أخر .

اغارة اهالي عسقلان المدمرة

لم يتوقف أهالي عسقلان عن التحرش بنا ، ولمعرفتهم بقلة عددنا ظنوا أنهم قادرون على اضعافنا وانزال الدمار الشديد بنا ، وبالفعل دمروا قرية صغيرة في أحواز القدس تدعى البيرة واحرقوها ، وحملوا معهم ماوجدوا من أسلاب هناك وذلك مع قتلاهم وعدد كبير من الجرحى ، وكانت النساء قد لجأن مع الأطفال الى برج شيد هناك في أيامنا ، فضمنوا بذلك النجاة بأرواحهم ، ثم طاف العسقلانيون وجاثوا خلال الديار ينهبون ويقتلون ويأسرون ويسرقون ويحدثون ماستطاعوا من دمار ، ولم يجدوا من يصدهم ، فقد كنا جميعا منهمكين بحصار صور ، ننتظر العون من السماء لانجاز مهمتنا بعون الرب وتدبيره ، وكان الوضع صعبا ولم يكن بمقدورنا الاستمرار في تحمل عناء الليل وجهد النهار .

وبينما كنا ننتظر بأذان مشنفة سماع اي همسة من اخبار مفرحة ، اذا نحن بثلاثة رسل يصلون من لدن البطريرك حملوا منه رسائل مستعجلة تعلن سقوط صور لنا ، ولدى سماع هذه الأنباء ارتفعت الأصوات مجلجلة وقامت ضجة عالية تدل على الفرح الزائد

والغبطة المتناهية ، واخـذ الجميع بـالحال ينشـدون « الحمـد للرب » وقرعت النواقيس ، ومشى موكب نحو معبد الرب ، ورفعـت الأعلام على الأسوار والأبراج ، وعرضـت الزينات الملونة في جميع الطرقات . ورفعت آيات الشكر ، وأجزلت العطايا للرسل ، وتبادل الوضيع والرفيع التهاني ، وابتهجـت الفتيات ورفعـن أصـواتهن بالغناء .

لقد حق للقدس أن تفرح مثل الوالد وتسر بابنتها صـور ، وقـد جلست الآن عن يمينها متـوجة حسـبما يليق بمـن هـو في منزلتها ، بينما ندبت مصر وبكت فقدان هيبتها ، التي كانت الى أمد قريب سندا لها ، واسفت على اسطولها المعتدي الذي كانت تسـيره كل عام ضدنا .

ومع أن مكانة صور تدنت وانخفضت في الأبهة الدنيوية ، فـالحق يقال أنها ارتفعت وترقت في المنزلة الربانية ، فبينمـا كان لهـا أيام الكفار إمام أو قاضٍ في مركز السـلطة ، سـوف يكون لهـا رئيس اساقفة أو بطريرك تمـاشيا مـع تقـاليد الآبـاء في الأعراف المسيحية ، وحيثما كان هناك مشايخ ائمة سيكون رؤساء اسـاقفة يعينوا لحـكم المقـاطعات ، وحيثمـا كان هناك حـاضرة أو مايسمى « أم قرى » سوف يشرف مطران على ثلاثة مدن أو اربعة داخل مقاطعة الحاضرة الأم .

وحيث وجد كهنة أو كونتـات في البلدان الصـغيرة سـيتم رسـم أساقفة ، زد على هذا لقد عرف الرهبان وباقي رجال الأكليروس في بعض التنظيمات الرهبانية الأقل شأنا « بمحـامى الشـعب » ولم تكن هذه التسمية من باب الحماقة أبدا .

استسلام مدينة صور :

عندما أدرك ملك دمشق أن الأتراك والمسلمين قد احتجزوا في مدينة صور ومالهم من قبضتنا مناص اثر ان يفتديهم احياء ولو ببعض المهانة على أن يبكيهم أمواتا ، لذلك استفسر بوساطة بعض الوسطاء العقلاء عن امكانية خروج قومه ومعهم جميع مقتنياتهم امناء من المدينة ومن ثم تسليمها إثر ذلك خالية الينا .

وبعدما تساوم الطرفان حول هذا الأمر لفترة طويلة ، تبادلا الرهائن ، وغادر المسلمون المدينة ودخلها المسيحيون بأمان ، وقضت الشروط بالسماح لمن اراد من المسلمين البقاء في المدينة والعيش بأمان .

شعر :

ظهرت الشمس احدى وعشرين مرة في برج السرطان .
عندما انتزعت صور مستسلمة مقهورة .
وحصل ذلك بعد سبعة أيام من اول تموز .

لهذا يجب علينا الا نكف عن ـ لابل الا نتردد في ـ أن ننشد الرب حاميا رؤوفا ومعينا لنا في أوقات الشدة ، وان نتوسل اليه في الصلوات حتى يصغي الى تضرعاتنا ، ولقد فعلنا ذلك بالقدس وطبقناه حقا بوساطة زياراتنا المتلاحقة للكنائس ، وبذرف الدموع ، وتقديم الصدقات ، ولجم الأجساد بالصيام ، واعتقد انا أن الرب المطل من عليائه لن يغادر قبل ان يترك وراءه بركة (يوئيل : ٢/١٤) ولسوف يسمع صلواتنا .

تتواءم كل سلطة زمنية في مقام عزتها مع المرتبة التي

تمثلها ، ففي المقام الأول هناك اغسطس أو الامبراطور ، ثم القياصرة ، ثم الملوك والدوقات والكونتات ، فهذا ماقاله البابا كليمنت ، وأنا كليت وأنيسيت وغيرهم كثير .

حمدا للرب في الأعالي الذي اعاد صور الينا ، لابقوة الرجال بل بعفو الخاطر وبدون سفك للدماء ، فصور مدينة نبيلة ، شديدة المنعة يصعب كثيرا الاستيلاء عليها لو لم يمد الرب عليها يمينه .

لقد خذلنا اهل انطاكية وتخلوا عنا في هذه المسألة ، فلاهم امدونا بالعون ولاهم رغبوا في حضور هذه المعركة ، ولتحل البركة على بونز كونت طرابلس ، فقد كان حليفا أمينا مخلصا لنا ، ونأمل من الرب أن يصلح مابين كنيستي انطاكية والقدس ، بعدما اختصمتا حول صور ، ثالثهما في المكانة ، فقد قالت الكنيسة الأولى : إن صور كانت تابعة لها أيام اليونان ، بينما قالت الكنيسة الثانية : إن مركزها قد ازداد قوة بالامتيازات التي خصها بها البابا في روما ، ذلك أن مجمع أوفيرن ، ذلك المجمع النافذ الكلمة ، الذائع الصيت ، كان قد أصدر بالاجماع قرارا بدون معارضة ، قضى بوجوب الاحتفاظ بأية مدينة عبر البحر العظيم يمكن انتزاعها من براثن الكفار الى أبد الدهر ، زد على هذا اعيد تثبيت هذا القرار وسلم به الجميع في مجمع انطاكية الذي تراسه أسقف لى بوي ، أضف الى ذلك : إن القدس هي البقعة التي استلم فيها غودفري والأمير بوهموند بلديهما من البطريرك ديمبرت محبة بالرب ، وقد ثبت البابا باسكال هذه الامتيازات ، وفعل ذلك من حين لآخر ، ونقلها الى كنيسة القدس ، ولسوف تتمتع كنيسة القدس بحقوق هذه الامتيازات ، مستندة الى سلطان كنيسة روما ، وستفعل ذلك أبد الدهر ، ووردت هذه الامتيازات في الوثيقة التالية :

امتيازات البابا باسكال :

من باسكال خـادم عبيد الرب الى أخيه العـظيم التبجيل غوبلين بطريرك القدس ، والى خلفائه في القوانين الكنسية .

تتغير ممالك الأرض وفقا لتبديلات الأزمان ، لهذا السبب إنه من المؤلم أن تتغير حدود الأبـرشيات الكنسـية وتنقـل في معـظم المقاطعات ، وكانت حـدود الكنائس الآسـيوية قـد وزعت في قـديم الزمان وفقا لقواعد محددة مثبتة ، وقد أخل بقواعد هذا النظام تدفق شعوب شتى تدين بأديان مختلفة ، وبما أن كل من مدينتي انطـاكية والقدس والمقاطعات والمناطق المجاورة لهما قد اسـتربتا ـ بحمـد الرب ـ في زماننا الى سلطة الأمراء المسيحيين بات مـن الضروري أن نضع يدنا على هـذا التغيير والتحـول الربـاني ، وأن نتـدبر ماينبغي أن نتدبره بما يوائم هـذا الزمـان ، وبناء على ذلك : إننا نمنح كنيسة القدس جميع المدن والمقاطعات التي امتلكت ببركة الرب وبحكمة الملك بلدوين ، وبدماء الجيش الذي كان بامرته .

وبناء عليه اننا نضـفي عليك ونمنحـك ياغوبلين ، وانت الأخ العزيز والشريك في الأسقفية ، والى من يخلفـك ومـن خـلا لك الى كنيسة القدس المقدسة ، بموجب هذا المرسـوم ، سـلطات الحـكم والتصرف بحقوق البطركية والمطـرانية في جميع المدن والمقـاطعات التي أرجعتها البركات الربانية الى سـلطان الملك المذكور ، أو قـد تتلطف وتتحنن في اعادتها في المستقبل .

ذلك انه من اللائق أن تحظى كنيسة قيامة الرب بالاجلال الجديرة به وفقا لرغبات جند الدين ، وأن تنعم الآن بعدما تحررت من براثن الأتراك والمسلمين بأكبر قدر من التبجيل على أيدي المسيحيين .

توزيع الأراضي حول صور :

وسويت المشاكل في صور وفق قواعد الأصول ، وقسمت الممتلكات الى ثلاثة اقسام متساوية ، بحيث أعطى اثنان منهم الى سلطة المدينة ، أما الجزء الثالث فقد اعطي الى البنادقة ، وقد وقع هذا الجزء داخل المدينة وحول المرفأ ، وفي الحقيقة منح للبنادقة نتيجة لتنازلات متبادلة ، تم الاتفاق عليها واحدا إثر الآخر ، وقضي التقسيم باحتفاظ كل فريق بحصته حقا وراثيا مؤبدا ، وبعد هذا عاد الجميع الى بلادهم ، فقد عاد البطريرك وجند القدس الى القدس حيث استقبل رجال الأكليروس والشعب الصليب المقدس بالاجلال اللائق .

الشارات التي ظهرت في تلك الآونة :

ظهرت لنا الشمس في تلك الآونة بلون باهر لمدة ساعة ، ومالبثت ان تبدلت بجمال ارجواني غير مألوف ، ثم انقلبت الى شكل قمري ، كما لو كانت في حالة كسوف مزدوج ، وقد وقع ذلك في اليوم الثالث قبل منتصف شهر آب ، عندما اوشكت الساعة التاسعة على الانغلاق .

وعليك الا تدهش لدى رؤية الشارات في السماء ، لأن الرب يظهر آياته هناك كما يظهرها على الأرض فكما يصنع في السماء يفعل على الأرض يبدل ويدبر الأمور حسب مشيئته ، وصحيح أن جميع الأمور التي يصنعها الرب رائعة حقا ، فان الرب نفسه الذي يصنع هذه الأمور يفوقها روعة ، وانني اتوسل اليك ان تتمعن بالأمور ، وتفكر مليا وتتبصر كيف حول الرب في زمننا هذا الغرب نحو الشرق .

ذلك ان الذين كانوا غربيين بـــاتوا الآن شرقيين ، والذي كان روميا أو فرنجيا قـــد تحـــول في هـــذه البـــلاد الى جليلي او فلسطيني ، ومن قدم من الرايم أو تشارترز صار الآن مـــن اهـــالي صور أو انطاكية ، ولقد ...يا الآن اماكن ولادتنا فهي قد بـــاتت الآن غير معروفة لدى الكثيرين منا ، ونادرا مايرد ذكرها .

ويمتلك بعضنا الآن البيوت والمساكن بالميراث ، كما اتخذ بعضنا زوجاتا لهم لا مـــن بنات جلدتهـــم ، بـــل مـــن السريانيات أو الأرمنيات ، بل وحتى من نساء السراسنة اللواتـــي حظين ببـــركة العماد ، وقد يسكن مع الواحد منا ختنة او زوجة ولده ، أو ابنه ان لم يكن ابـــن زوجتـــه أو زوج أمـــه ، ولدينا الآن احفـــاد اولاد واحفاد ، ويعتني بعضنا بـــزراعة الكرمـــة ، ويحـــرث آخـــرون الحقول .

وأخذ الناس يلجأون الى اعتماد التعابير من لغـــات شـــتى ، كذا استعمال البيان في التحادث فيما بينهم ، فقد غدت كلمات كثيرة من لغات مختلفة ملكية مشتركة تعرفها كل امة ، ويوحد الدين فيما بين الذين جهلوا أصلهم ، وحقا صح ماورد في الكتاب « الذئب والحمل يرعيان معـــــــا والأســـــــد يأكل التبـــــــــــن كالثور » (اشعيا : ٦٥ / ٢٥) وأصبح الذي ولد غربيا كمن ولد هنا ، ومن ولد أجنبيا صار مثل ابن البلد .

وينضـــم الينا بين آونة وأخـــرى اقـــرباؤنا وابـــاؤنا وذوونا ، مضحين ـ وان كان على مضض ـ بكل ماملكت ايديهـــم فيما مضى وقد جعل الرب الذين كانوا فقراء في الغرب اثرياء في هـــذه الديار ، والذين كان لديهم قليل من مال امتلكوا الآن هنا مالايحصى من القطع الذهبية ، ومن لم تكن لديهـــم دار امتلكوا بنعمـــة الرب مدينة .

فلماذا اذن يرجع الى الغرب من وجـــد الشرق هـــكذا ؟ فـــالرب

لايريد ان يعاني من العوز والفاقة الذين كرسوا انفسهم على اتباعة بصلبانهم حتى النهاية .

فأنت ترى اذن ، ان هذه اية خارقة ، ينبغي على العالم بأسره ان يبدي اعجابه بها ، فمن الذي سمع بأمر مثل هذا ، فالرب يرغب في أن يغذينا جميعا ويقربنا منه لنكون اعز اصدقائه ، ولأنه يرغب في هذا ... ارنا نتوق شوقا اليه بشكل مطلق ، ونحن نقوم بما ينال ...اه بقلب تغمره المحبة والخضوع حتى نتولى الملك معه الى أبد الآبدين .

اطلاق سراح الملك من الأسر وحصار مدينة حلب :

بفضل من الرب القدير ، أطلق سراح ملك القدس من الأسر على يد الترك ، في اليوم الرابع قبل مطلع شهر ايلول ، بعدما أمضى في السجن نيفا وستة عشر شهرا ، ونظرا لأنه توجب عليه تقديم رهائن مختارة مقابل اطلاق سراحه ، أنه لم يمض حرا طليقا بدون مثبطات ، فقد ارغم هو والرهائن على القلق حول مستقبل مبهم يحفه الغموض .

وبعد هذا بوقت قصير ، واثر عقد بعض المداولات ، سارع الملك - بحكم الضرورة - الى حصار مدينة حلب ، وقصد بالقاء الحصار عليها اما ان ينتزع اطلاق سراح رهائنه اما بوساطة السكان انفسهم او امكانية احتلال المدينة ، لأنها كانت تعاني من المجاعة ، فهو قد علم فعلا أنها كانت تشكو من شح الغذاء .

وتبعد هذه المدينة قرابة الأربعين ميلا عن انطاكية الكبرى ، فهنا جعل ابراهيم - وهو في طريقه من حران الى بلاد كنعان - رجاله يرعون الماشية في هذا المرتع الخصب ، وقد رعى منها الحوامل

والتي سوف تحمل العجول ، وهنا قام بحلب الحليب في الدلاء ، وتخثيره ، ثم عصر الخثارة في اكياس وصنع الجبنة منها ، فقد كان ابراهيم موسرا لديه من المقتنيات من كل صنف .

وفي اليوم الثالث عشر قبل مطلع شهر كانون الثاني توفي البابا كالتكستوس وفي عام ١١٢٥ لتجسيد مخلص الدنيا ، في الخمسعشرية الثالثة حاصر ملك القدس ورجاله مدينة حلب مدة خمسة أشهر ، غير انه لم ينجز شيئا ، فقد عبر الأتراك - وهم يقظين كعادتهم - نهر الفرات ، نهر الجنة العظيم (سفر التكوين : ٢ - ١٠ - ١٤) وزحفوا بسرعة قصوى نحو مدينة حلب بهدف فك الحصار عنها ، وذلك انهم كانوا يخشون ان تسقط حلب بعد امد قصير ان لم يغيثوها بالسرعة العظمى ، فقد كان قومنا قد اخذوا بحصارها منذ مدة طويلة .

لقد كان هناك سبعة آلاف فارس من الأعداء معهم نحوا من اربعة آلاف جمل محملة بالقمح وغير ذلك من المؤن ، وعندما اخفق رجالنا في الانتصار على الأعداء اضطروا الى رفع الحصار والانسحاب في اليوم التالي الى الأثارب ، وهي أقرب موقع حصين وقع تحت سيطرتنا ، وبعد ماطاردتنا مجموعة من الأتراك لمسافة قصيرة فقدوا اثنين من أشجع رجالهم ، حيث سقطا عن فرسيهما فلقيا حتفهما ، وفقدنا نحن أحد تابعي المعسكر مع ستة خيام .

ووقع هجوم الأتراك في ليلة اليوم الرابع قبل بداية شهر شباط ، ولأن الأتراك باغتونا فقد وجدونا غير محتاطين واربكونا .

وانه لمقيت جدا ان يجري الحديث عن هذا الحدث ، وانه لمعيب جدا وشائن أن يعرف ، ثم انه ممل ومقيت ان يسمع ، ولكنني انا الذي ارويه لن أحيد عن الحقيقة ، وماذا اذن ، من الذي يستطيع ان

يقاوم مشيئة الرب ، فضلا عن هذا لقد صدق المثل الذي ضربه رجل حكيم حين قال :« الحوادث التي ماتزال في بطن الغيب لاتمنع ، ولاهي تسمح لنفسها في ان تهزم » وفي الحقيقة كان لابد لهجوم العدو هذا من الوقوع ، لكن مامن احد توقع ذلك سلفا ، ولو تم توقعه قبل وقوعه لما وقع مطلقا ، اذ ان الفكرة في الذهن تؤدي الى لاشيء الا اذا وجدت ارادة العمل ، ولو تنبأ احد بالهجوم لأدى الحال الى نقضه ،ولو نقض ماكان وقع .

وانسحب الملك بلدوين اخيرا الى انطاكية ، وذهب معه جوسلين ، وأما الرهائن التي قدمها الملك وقت اطلاق سراحه من الأسر فلاهم أعيدوا ولاهم افتدوا ، ومالبث ان عاد اهل القدس الى القدس وكذلك اهل طرابلس الى ديارهم .

ويكبح التدبير الرباني جماح من أفلح وفقا لمعايير القيم البشرية حتى لايغمره الغرور ، كما انه يغبط الأشرار بحق حتى لايتمتعوا برفاهية الرخاء المديد .

ومن الذي يمنح كل خير ومن الذي يطرد كل شر غير الرب ، موجه النفس وسلوانها الذي يبصر من عليائه في السموات ، ويدرك الأمور كلها ، فمنذ أمد قصير أعطانا نحن المسيحيين بنعمة منه ، مدينة صور المجيدة الجبارة ، وانتزعها من ايدي الذين تملكوها ، وراق له الآن أن يسحب يده .

لعله ادخر كرمه للذين عظم ايمانهم من المزارعين ليتعهدوه بالعناية ، ولمن توفرت لديهم الرغبة والمقدرة على جني الثمار الوافرة منه في الموسم المناسب ، والحق يقال : ان بعض الناس اذا مازادت ثرواتهم قلت افعالهم ، وهم لايقدمون الشكر المتوجب عليهم لواهب كل الخيرات ، فضلا عن انهم يقترفون الاثم ويخادعون

عندما يكذبون على الرب مرارا في تلك الامـور التـي وعدوا بهـا في صلواتهم ، لكنهم بخداعهم مايخدعون الا انفسهم .

استقبال الملك في القدس بفرحة عظيمة :

بعد أسر دام عامين على أيدي الكفار ، وبعد ما قيد بـالسلاسل بوحشية ، عاد الملك الى القدس ، ولقد اسـتقبلناه جميعـا في اليوم الثالث قبل الخامس من نيسان في موكب رائع ، وكان قدومه مجرد زيارة فبعدما أمضى بيننا فتـرة وجيزة رجـع مسرعا الى انطـاكية استجابة لدعوة تلقاها منها ، فقد دمر الاتراك تلك البلاد وكان اكبر قادتهم البرسقي الذي قاد ستة آلاف فارس .

البنادقة يدمرون في طـريق عودتهـم الى بـلادهم جـزر الامبراطور :

وصلتنا الأخبار في تلك الآونة أن البنادقة ، قاموا وهـم بـرحلة عودتهم الى بلادهم بعد الاستيلاء على مدينة صـور بـالاغارة على جزر الامبراطور (البيزنطي) التي مروا بها فأحدثوا فيها دمـارا وتنكيلا ، وهذه الجـزر هـي : رودس وميثـون ، وسـاموس وشـيوس ، فـدكوا الأسـوار وحملوا معهـم الفتيان والفتيات الى السبي والعذاب ، ونهبوا الأموال والأسـلاب مـن كل نوع ، ولما لم يكن بمقدورنا تغيير هذه الحقيقة بعد سماعنا لها ، بـكينا لما حـدث بحرقة ولامست الشفقة شغاف قلوبنا .

فقد تمرد أهل البندقية على الامبراطور ، واشتد غضبهم وحقدهم عليه ، فاستشاط منهم غضبا ، ثم احتدم غيظ كل طرف منهما على

الطرف الآخر ، وباتا عدوين لدودين حقا ، ولكن « ويل للعالم من العثرات ، ويل لذلك الانسان الذي تأتي به العثرات » (متى : ١٨ / ٧) فاذا كان الخطأ من جانب الامبراطور فهو اذن المبادر بالسوء ، واذا كان من جانب البنادقة فهم قد جلبوا على انفسهم هلاك الجحيم .

وفي الحقيقة تنبع جميع الآثام من الرعونة والعجرفة ، اولايكون الانسان متعجرفا عندما يأثم ويفعل ماحرم الرب ، فقد كان هدف البنادقة الثبار لانفسهم ، وكان غرض الامبراطور الدفاع عن نفسه ، وهو يقول ان ذلك اكثر انصافا ، بيد ان الأبرياء الذين وقعوا في الوسط بينهما يعانون من الشقاء لذنوب لم يقترفوها ويهلكون من غير حق .

لكن مالذي يمكن أن يقال عن الذين لاينفكون عن القيام بأعمال القرصنة ، فيوقعون كل مايمكنهم من اضرار بحجاج الرب الذين يركبون البحر يريدون القدس ويتكبدون الجهود الشديدة والعناء محبة بالخالق ؟ واذا حقت البركة للودعاء (متى : ٥ / ٧٢) فأي رحمة تحق لفاقدي الضمير ؟ انهم ملعونون من الكنيسة ومحرومون ولسوف يهلكون غير تائبين من غدرهم واثامهم ، وعندي إن هؤلاء القوم سوف يلقون في الجحيم وهم على قيد الحياة (المزامير : ٦/٥٤) فهم لم يطيعوا الرسل ، وتمردوا على البطريرك ولم يعبأوا به ، واستهانوا بكلام الآباء المقدسين .

وانا أعرف ماينبغي ان يقال فيهم ، ولست خائفا من ان اقوله ، ولسوف يأتي اليوم الذي سيسمعون ذلك من الرب ، وذلك القاضي العادل والحاكم الصارم لااعرفكم ، من اين أنتم (لوقا : ١٣ / ١٢) انتم يامن تطلبون ان يفتح لكم الباب ، انكم قد اتيتم متأخرين ولم تجلبوا معكم خيرا ، وان الباب

قد اغلق (متى : ٢٥ / ١٠) لم تشاؤوا أن تصغوا الي فيما مضى ، اما الآن ماأظن انه جدير بي أن أصغي اليكم ، وأنا الذي كنت مره قد دعوتكم بان قلت:« تعالوا » اقول الآن بحق « اذهبوا » (متى : ١١ / ٢٨ ، ٢٥ / ٤١) «أقول ماأقول امين ولن أغير ماقلت بأي حال من الأحوال » وأقول : ان ماتبقى لهم وينتظرهم رهيب لايطاق ولسوف يكتب الشقاء السرمدي على الذين استحقوه .

اما الآن فسأتابع سرد الأحداث بتسلسلها الزمني ، وحتى أحقق ذلك ولكي لاأقطع مسار الحديث فسوف اعتني بتدوين كل حادث بايجاز .

المضار التي أحدثها البرسقي والحرب التي شنت ضده :

لذلك كله فان البرسقي الذي ذكرنا من قبل طرفا من اخبار شجاعته ووصفنا تجرده من المبادىء والأخلاق ، اقدم بعدما تزايدت قوة جيشه تدريجيا يوما اثر اخر ، على محاصرة مدينة اسمها كفر طاب واستولى عليها بعد الحصار ، فاستسلمت له ، وسلمها وتنازل عنها الرجال الذين تركوا فيها للدفاع عنها ، ذلك انه لم يعد في مقدورهم الحفاظ على مواقعهم وقتا اطول ، ولم يبق لديهم امل في استلام العون من اي مصدر كان ، فلا الملك وصل اليهم ولا كونت طرابلس الذي اصطحبه معه.

فضلا عن هذا كله لم يكن مع الملك سوى حفنة من رجال القدس ، فقد كان اهل القدس قد اصابهم الانهاك لشدة الجهد الذي بذلوه الآن وفي العام المنصرم ، فكيف كان بمقدور الذين ماكادوا يستريحون في بيوتهم شهرا واحدا ان يحتملوا مثل هذا الجهد المتواصل ، يقينا انه لقاسي القلب كل امرىء لاتتحرك في نفسه عواطف الرحمة نحو الذين

يعيشون حول القدس ، الذين يتحملون الشقاء العظيم ويعـانون ليلا ونهارا في خدمة الرب ، والذين يتساءلون - خشية - وهم يغادرون منازلهم عما اذا كانوا سيرجعون اليهـا ابـدا ، واذا مضـوا بعيدا كانوا بحكم الضرورة يحملون الاثقال من الاوعية والمؤونة.

واذا كانوا من الفقراء سواء من الفلاحين او من الحـطابية فقـد يقعون في الاسر او يقتلون على ايدي السودان في كمـائن في الوهـاد والاحراح ، ويباغتهم المضريون بغارات من البحر او من البـر مـن هذه الناحية ، اما من ناحية الشمال فكان الاتراك يفـاجئونهم ، وفي الحقيقة ان اذاننا مشنفة لسماع زعيق الابواق ، فلعل الحـرب قـام ضجيجها وجلجلت في الخار - ، ولو اننا لن نزلق نحو العاصي لغدونا حقا اخلاء للرب بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

وبعد مااجتاح البرسقي اراضي سورية المجـوفة ضرب الحصـار حول قلعة زردنا ، وهو طامع في الاستيلاء عليها والحصـول على كل مايتهيأ له ، غير انه اخفق في الوصل الى ماصبا اليه لذلك زحف على راس جيشه نحو مدينة اعزاز واوشكت على السـقوط ، ودنا وقـت الهجوم الحاسم على حاميتها ، اذا بملكنا يصـل على راس ثـلاثة عشر فيلقا من رجالنا معبئين في ترتيب كامل للمعركة ، فقـد اتخـذ رجال انطاكية مواقعهم على الميمنة ووقف كونت طرابلس مـع كونت الرها في اليسرة ، وكان موقع الملك في السـاقة حيث وجـدت كثـافة التجمعات.

وكان الاتراك منقسمون الى احـدى وعشرين فيلقـا ، لذلك كان عددهم بالفعل متفوقا كثيرا ، وسحبوا قسيهم وفـوقوها مشـدودة الاوتار بعد أن نقلوها من ايديهـم واقـروها على سـواعدهم ، ثـم هاجموا رجالنا ولم يلبثوا ان انقضوا عليهم بسيوف مشـهرة حيث اشتبكوا معهم في قتال التحامي قريب.

ولم يتردد ملكنا طويلا اثر مشاهدته لما حدث فانقض على الاتراك متسلحا ومحميا بالصلوات وبشارة الصليب ، صارخا: « الرب يساعدنا» وفعل ذلك وسط صدح الأبواق والضجيج المرتفع ، وامر رجاله في ان يحذوا حذوه ذلك انهم لم يقدموا على المبادرة بالهجوم ومباشرة القتال قبل ان يصدر الملك اوامره بذلك.

والحق يقال ، قاوم الاتراك في البداية بكل بسالة ، غير انهم ضعفوا ، ولحقهم الوهن بقدرة خالق الأكوان ، ودب فيهم اليأس ، ونشرت الملحمة العظمى الفوضى بين صفوفهم ، فولوا الأدبار ، وفر منهم من استطاع الفرار.

شعر :

طلعت الجوزاء خمس مرات
عندما وهبنا الرب هذا النصر

وقد وقعت هذه المعركة - التي سوف يخلد ذكراها تمجيدا للرب - في اليوم الثالث ، قبل منتصف حزيران اللافح .

عدد القتلى في هذه المعركة :

من غير الممكن معرفة عدد القتلى او الجرحى في هذه المعركة معرفة حقيقية ، ويندرج هذا على اي معركة اخرى ، لأن الاعداد الكبيرة يمكن تقديرها فقط ، وعندما يتفوه مختلف اصحاب المصنفات والكتاب بالكذب والبهتان ، فمرد ذلك في الواقع الى التزلف والمداهنة فهم يسعون الى اغداق المديح على رجالات بلادهم المنتصرين والى الافراط والمبالغة في اطراء قوة

بلادهم ، حتى ينتفع من ذلك أجيال الحاضر والمستقبل ، وبناء عليه من الجلي بكل وضوح ان يقدموا على المبالغة في تقدير عدد القتلى من الأعداء ، وتقليل ــ ان لم يحذفوا كلية ــ أرقام الخسائر التي تحل بأصدقائهم ، فالكذب يتماشى هنا مع هذه القحة .

وعلى الرغم من هذا كله ذكر لنا الذين شهدوا هذه المعركة أن ألفي تركي لاقوا حتفهم ، وبذلك شهد أيضا الأتراك الذين فروا من القتال ، وقد هلك عدد هائل من الخيول من الطرفين نتيجة الانهاك او بسبب العطش الشديد ، فقد كان يوم الملحمة قائظا وزادته شدة الجهود ورفعت من حرارته ، وكانت معركة شديدة قد وقعت ، أصاب فيها قوم جنات النعيم وهلك آخرون ، وهرب قوم وطاردهم آخرون ولم ينج من المضمار أحد ، فاحمرت الحقول وصبغت بدم الهالكين الطرقات ، وتلألأت الدروع والسابغات ، وأشعت الخوذ وأسنة الرماح وألقي بالمعدات البراقة على الأرض في كل جانب ، فقد رمى واحد بدرعه وقذف آخر بكنانته أو قوسه .

ولم يرغب البرسقي في ادخار جهده للقتال ، لكن طغتكين آثر أن يقيم حافي القدمين في دمشق وان يحافظ على ملكه بحذر وحكمة ، وخسر الأتراك في المعركة خمسة عشر اميرا ، ولم نفقد أكثر من عشرين رجلا ، كان خمسة منهم فقط من الفرسان وكان قوام جيشنا قبل المعركة ألف ومائة فارس مع ألفين من الرجالة ، بينما كان لدى الأتراك خمسة عشر ألف مقاتل .

فدية ابنة الملك :

عبر البرسقي نهر الفرات ، بعدما تسكع في ديارنا لعدة أيام فقط ، وقد رجع الى بلاده دون أن يحمل الى أصدقائه في المشرق (فارس) المجد والفخار ، بل نقل معه الفجيعة والعار ، فهذا الذي قدم الى هذه الديار مهددا متوعدا انكفأ - بفضل الرب - محروما من الشفقة مدحورا .

وسارع الملك بدوره بالذهاب الى القدس بعدما دفع فدية ابنته التي كانت في الخامسة من عمرها ، فقد كانت رهينة وكذلك دفع عن عدد من خدمه الذي كانوا في الأسر ، لقد مضى الى القدس ليقدم الشكر للرب ويخصه بالحمد ، فبعدما سحق وداسته الأرجل لفترة مديدة ، ونزلت به عجلة الحظ الى الحضيض حتى ان كاد يستسلم في بؤس وخزي ، أعادته مشيئة الرب الآن قويا ، وأرجعت اليه مجده الخالص .

شعر :

لقد انقضت الآن ستة أضعاف العشرة مع ضعفي الثلاثة أعوام
منذ أن ولدت الى يومنا هذا

لعل الرب يقضي بالشيء نفسه ويحكم فيما تبقى من أيام حياتي .

القلعة التي شيدها الملك :

شيد الملك في شهر تشرين الأول من هذا العام ، قلعة في الجبال الواقعة فوق بيروت في منطقة عظيمة الخصب وسماها قلعة جبل غلافينوس وذلك اشتقاقا من « ديغلاديو » ذلك ان من يحكم عليه بالاعدام في بيروت كانت تقطع رأسه هنا ، وبعدت هذه القلعة عن بيروت ستة أميال وكان الفلاحون السراسنة يرفضون في الماضي دفع الخراج عن أراضيهم ، أما الآن فقد أرغموا على فعل ذلك .

حملة الملك والمعركة مع الأتراك :

قام الملك بعد هذا مباشرة بالاعداد لحملة على دمشق في سورية ، ذلك ان السلام بينه وبين طغتكين قد خرق ، فاحتل ودمر ، وخرب ثلاثا من أغنى القرى ، ثم عاد نحو بلاده ومعه من الغنائم كلما تمكن من حملة ، وبعد ماقسم المغانم ووزعها بين الفرسان وسواهم ممن كان معه ، وفقا للقواعد العادلة المرعية ، وجه قواته في اليوم التالي في حملة نحو بلاد الفلسطينيين .

وكانت في تلك الآونة قد تجمعت قوات جديدة في عسقلان ، وكان قد جرى ارسالها من القاهرة ، وخيل لقواتنا من الفرسان ـ وهي راغبة في اظهار شجاعتها على أراضينا ـ انها سوف تنتصر الآن ، ولما رأى أهالي عسقلان المدينة المذكورة رجالنا يتقدمون بأعلام منشورة خرجوا للتصدي لهم بكل جسارة ، وهم يطلقون الصرخات العالية .

ولم يكن الملك ـ دهاء منه ـ قد تقدم بعد نحو الصف الأمامي حيث رجاله ، وتلكأ في الساقة حتى يقدم يد العون عندما تقتضي الضرورة ، فيما لو جرب بعض رجاله الفرار خلسة ، وهاجم فرساننا الذين كانوا في الصفوف الأمامية العدو وبضراوة لاتصدق ، ذلك أنه لم تعوزهم الشجاعة ، وحملوا وهم يصرخون « الرب يعيننا » فسحقوا العدو ، وحسب معلوماتي انه لو توفر لنا بضعة رجال آخرين جاهزين في ذلك الموقع ، لأمكنهم بكل تأكيد اختراق عسقلان مع الذين اشتركوا في المطاردة .

وندب وبكى من بقي من أهالي عسقلان على قيد الحياة ، على مقتل اكثر من أربعين من خيرة رجالهم ، وقد أصيبوا بصدمة هائلة نتيجة لهذه النكبة ، التي لم تكن بالحسبان ، وبعدما صدحت الأبواق ايذانا بوقف القتال ، أراح الملك رجاله تلك الليلة خارج المدينة على مقربة منها ، وفي الوقت الذي رقد فيه رجالنا ببركة الرب ، امضى العدو ليلته ساهدا تعيسا ، وكما قال يوسفيوس :« من عظمت ثقته بنفسه قل احتراسه ، بيد ان الخوف يعلم الحكمة » .

وينبغي ان ننوه أن فرساننا الذي كانوا في المقدمة في ذلك اليوم لم يعثروا على أية فريسة حول المدينة ، فقد كان أهل عسقلان قد أخفوا بتدبر قطعانهم ذلك أنهم كانوا قد أخطروا بقدوم الملك.

المسلمون يبعثون بالرسائل بوساطة الحمام:

من عادات المسلمين الذين يسكنون فلسطين نقل الحمام من مدينة الى أخرى لكي تحمل الرسائل في عودتها الى المدينة التي كانت مؤخرا موطنا لها ، فترشد هذه الرسائل – التي تكتب عادة على

ورق ، وتعلق بأقدام الطيور ـ من يعثر عليها ويقرأها الى الذي ينبغي عمله إثر ذلك ، ومن الجلي أن هذا قد حدث في هذه المناسبة.

تنوع العادات:

تختلف العادات وتتباين التقاليد حسب تعدد البلدان وتنوعها ، فلفرنسا عادات خاصة وكذلك لانكلترا ومصر والهند لكل منها عادات أخرى ، وكذلك تختلف البلدان عن بعضها بالطيور والأشجار ، فأنا لم أشاهد في فلسطين الحوت ولا سمك الجلكي ، ولم أر بين طيورها غراب العقعق ولا الشادي ، وفيها حمر وحشية ، وقنافذ شوكية ، بالاضافة الى الضباع التي تحفر قبور الأموات ، ولم أجد بين شجرها شجر الحور والبندق والبيلسان والآس البري ولا القبقب.

انواع مختلفة من الافاعي والبهائم في بلاد المسلمين

رأينا جميعا مؤخرا حول نابلس حيوانا لم يعرف انسان منا اسمه ولم يسمع به من قبل ، له وجه كذكر الماعز ، ورقبة كرقبة الحمار الصغير ، وأظلاف مشقوقة وذيل كذيل العجل (تيس) وهو أكبر من الكبش.

وفي مصر حيوان آخر يدعونه هناك « الكمير » وهو طويل في مقدمته وليس في مؤخرته ، وقد اعتادوا أن يلقوا عليه أيام الأعياد أنفس الأردية بالاضافة الى أشياء فخمة أخرى مما كانوا يرغبون في تقديمه الى أميرهم ، وهنالك أيضا التمساح ، ذلك الحيوان الشرير الرباعي الأقدام ، الذي يعيش على اليابسة وفي الأنهار بإلفة متساوية ، وليس لديه لسان ، بل يحرك فكه العلوي فتطبق عضته بقوة هائلة واحكام ، وهو ينمو حتى يفوق طوله العشرين

ذراعا ، ويبيض بيضا مثل الوز ، ويفقس صغاره فقط في المواقع التي لا يصل اليها النيل ، عند ارتفاعه في مده ، وهو مسلح بمخالب ضخمة جدا ويعيش في المياه أثناء الليل بينما يتمدد على اليابسة أثناء النهار ويغلفه جلد خشن ثخين.

ويوجد من هذه الرباعية الأقدام في واحد من جداول قيسارية فلسطين ، ويقال أنها أحضرت بالخداع والمكر مؤخرا من النيل ذاته ، لذلك هي كثيرا ما تلتهم الآن الحيوانات الأخرى وتسبب كثيرا من الأذى في تلك الأنحاء.

أما جاموس النهر (سيد قشطة) فيعيش في نهر النيل فقط ، وكذلك في الهند ، وهو يشبه الفرس في ظهره وعرفه وفي صهيله وشموخ أنفه وانشقاق حوافره ، والتصاق أسنانه والتواء ذيله ، ومن عادته الرعي في حقول القمح في الليل ، تجده يقترب منها مشيحا بوجهه عنها مكرا وخديعة ، ويخلف وراءه أثرا مضللا حتى لا ينصب له أحد فخا في طريق عودته ، ويفوق جسد هذه الحيوان الفيل ضخامة ، ولقد خلق الله جميع الحيوانات صغيرها وكبيرها والذي يرضيه مما خلق لا بد أن يرضينا ، ولهذا وجب علينا أن نقدم له الحمد والشكر.

وفم التنين صغير ، وهو لا يستخدمه للعض لأنه نوع من أنواع المسالك يتنفس هذا الحيوان من خلاله ، ومنه يبرز لسانه ، ولهذا فإن سمه في ذيله وليس في أسنانه ، وهو لا يسبب الأذى باللدغ بل بالدق والالتفاف والعصر ، ويمكن أن ينحت حجر برأسه ، والتنين هو أكبر الأفاعي على الاطلاق ، إن لم يكن أكبر الكائنات الحية على وجه البسيطة ، وكثيرا ما يغرى لمغادرة كهفه الى العراء ، فتثور وقتها في الجو ضوضاء كبيرة ، ولهذا الحيوان عرفا ، ثم إن كل ما يقبض عليه يهلك حالا ، وفي الحقيقة إن الفيل على ضخامة حجمه لا يأمن من شره ، وهو يتوالد في الهند وفي السودان في حرارة الصيف

الدائم ، ويكمن متربصا حول الممرات التي تمر بها الفيلة ، ويربط أقدام ضحيته ويعقدها فتهلك خنقا وهو ليس لديه أرجل.

ويوجد الرخم في سكيثيا الآسيوية (شمال البحر الأسود) وهو طائر شديد التوحش معتوه يتخطى حدود الجنون ، ثم هنالك « الهركانيون » وهم جنس وحشي يسكن الأدغال ، تعج بلادهم بالبهائم الوحشية العملاقة ، ومن بينها النمور ، ويمتاز هذا النوع من الحيوانات بترقيطاته الصفراء اللامعة ، ولست أدري ما الذي يمده بالسرعة في العدو ، أهي رشاقة حركته الطبيعية ، أم هو عزمه وتصميمه ، وما من شيء يركض سريعا قبله فلا يستطيع النمر أن يلحق به بسرعة ، ومامن شيء يسبقه النمر فيستطيع أن يلحق به.

ويوجد في « هيركانيا » فهود تغطيها بقع صغيرة ، ويروي أن قطعانا من الحيوانات الأخرى تتأثر بشكل عجيب برائحتها ومنظرها ، وعندما تشعر هذه الحيوانات بوجود الفهود تحتشد مع بعضها على شكل قطيع ، وعندها لا تخاف سوى من منظر أنياب الفهد ، وتقتل الفهود بالسم أكثر منها بالسلاح ، وذلك لتشبثها الشديد بالحياة.

ويشابه الجمل البغل ببروز شفته العليا ، وهو لهذا لا يقرر أن يرعي إلا إذا مشى الى الخلف وتتكاثر الحرباء ، وهو حيوان رباعي الأقدام في الهند على الأكثر ، والحرباء تشبه السحلية ، غير أن أقدامها مستقيمة وطويلة وتلتصق ببطنها ولها ذيل طويل أعوج ، ومخالب تنحني برقه ، والحرباء ذات مشية بطيئة وجسد خشن ، وجلد كجلد التماسيح ، وفمها فاغر على الدوام وليس لها فائدة تعد ، ويعافها الغراب الأسود ، وهي تقتل من يميتها فإذا ما قتلها الغراب قتلته ، لأن الغراب اذا التهم من جسد الحرباء لقمة صغيرة يموت لتوه ، على أنه في هذه الحال للغراب علاج يتماثل بتناوله الى الشفاء ، وهو ورق الغار ، وليس في جسد الحرباء لحم ، ولا في أحشائها طحال ، وهي تكتسب لون ما يحيط بها.

شعر :

هي تدعى سلمندر بالاغريقية وستيليو باللاتينية
وتلك الستيليو الملتهبة هي السلمندر الحرباء الخشنة.
لديها ثلاثة أسماء ولكنها شيء واحد فقط.

وهنالك طير يدعى الفرس المجنح ، مع انه ليس له من صفات الفرس غير الأذنان ، وهنالك أقوام طوال القامات قادرون على امتطاء الفيلة بسهولة كما لو انها خيول ، وهؤلاء من الجنس الأبيض في صغرهم غير أنهم يزدادون سوادا مع تقدمهم بالسن.
ويفوق الوحش الأبيض جميع حيوانات البرية في سرعته ، وهو بحجم حمار الوحش وله عجز كعجز الوعل وصدر كصدر الأسد وأقدام كأقدامه ، ورأس كرأس الغرير ، وحوافره مشقوقة ويمتد فمه من أذن الى أذن ، وله عظام متصلة بدل الأسنان ، وكذلك شكله من الناحية الأخرى وصوته يقلد صوت الانسان.

ويتوالد بينها وحش يدعى المنتقيور ، وله ثلاثة صفوف من الأسنان تنطبق وتستعمل بالتناوب ، وله وجه كوجه الانسان ، وعينان براقتان ، ولون دموي أحمر ، وجسد مثل جسد الأسد ، وذيل شائك فيه زعانف مثل العقرب ، وله صوت صفيري كأنه نغم الناي ، وهو يسعى بشراهه في طلب اللحم البشري ، كما أنه خفيف الحركة ويستطيع أن يقفز بعيدا ، فلا تستوعبه أوسع الأماكن ولا تعيقه أشد العراقيل.

من ذا الذي يستطيع أن يفقه آيات الرب أو يسبر غورها ، في تعددها وعظمتها في خضم بحر الحياة الشاسع الواسع حيث تعيش شتى أنواع الحيوانات والزواحف التي تفوق الحصر؟ ولقد اقتبست الذي أوردته هنا على ايجازه من الكاتب سولينوس الذي فاق على

الباحثين همة ومهارة ، أمـا مـا وجـده الاسـكندر الكبير في الهند وشاهده هناك فسوف أحكيه فيما بعد ، أو على الأقل سأروي بعضا منه.

لقد شارف هذا العام الآن على الانتهـاء فليمض الرب في حـكمه على سنة هذا الزمن ، ويندمج الآن هذا العام في العام المقبل.

حملة ملك القدس على ملك دمشق:

في عام ١١٢٦ لتجسيد مولانا ، وخـلال الخمس عشرية الثـالثة بعد الاحتفال بعيد الميلاد في القدس ، حشد الملك جيشه بهدف شـن هجوم على ملك دمشق ، وبعدما أعلن المستنفزون التعبئة ، تحركت الطاقة البشرية في مملكة القـدس ، تحـركت بـرمتها فـرسانا ومشاة ، وزحـف رجـال يافـا والرملة وكذلك اللد عبـر نابلس ، وساروا على طريق بيسان بينما سار رجـال عكا وصـور على الطريق الشمالية.

وتحت قيادة الملك عادروا بلدة صفورية ، وكان جبل طـابور على يمينهم ، ووصلوا الى طبـرية ، وهناك انضـم اليهـم رجـال القدس ، ثم عبروا جميعـا نهـر الأردن ، واسـتراحوا بـأمان في معسكرهم.

شعر:

عم الهدوء والسكون في تلك الليلة الصافية.
وأضاءت الأهلة القمر السادس عشر